الحلم و الأوباش

مويان

رواية

ترجمة

محسن فرجانى

دار العين للنشر

الروائي الحاصل على جائزة نوبل للأدب 2012

الحلم والأوباش

الحلم والأوباش

رواية

ترجمة: محسن فرجاني

الطبعة الأولى / ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس:٢٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: محمد عبد العزيز
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣٣٣٠ /٢٠١٣
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 208 - 6

梦境与杂种

الحلم والأوباش

رواية

مويان

ترجمة

محسن فرجاني

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

مويان، ١٩٥٥

الحلم والأوباش: رواية/ مويان، ترجمة محسن فرجاني.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٣

٢٨٨ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٢٠٨ ٦

١– القصص الصينية

أ– فرجاني، محسن (مترجم)

أ– العنوان

٨٩٥,٣

رقم الإيداع/ ٣٣٣٠ / ٢٠١٣

"ممكن جداً جداً أن يكون التمثال، وهو عار، قطعة من الفن الرائع، لكن جسد امرأة عارية، لا يمكن أن يكون من الفن في شيء".. هذا ما قاله السيد موروويا لأبي وهو يحدثه، والغليون الأصفر المصنوع من خشب الحَوْر متدل من جانب فمه.. "الحب شيء موجود في أحلامنا فقط يا عم.. كل الأشياء التي تسحب خيالك وتجرجره وراءها حتى ينتهي إلى أرض الواقع.. وكل الحاجات التي تشبع نهم أعضاءك الحسية، كلها تهدم الحب من أساسه". مالت شمس الظهيرة وانحدر ضووها في ركن الفناء الواسع، فصنعت أوراق شجر المشمش ظلالاً خفيفة، وكان أبي جالساً على الحذاء وينصت ملياً، وكأنه يحاول أن يفهم حديث الرجل الذي اسمه موروويا، الأجنبي القادم لا أدري من أي بلد في الأرض، وكان يتكلم بلغة صينية ركيكة، لا تسعفه في التعبير عن أفكاره بوضوح.. هل فهمت قصدي؟ سأله السيد موروويا، فمال أبي برأسه وهو يتأمل أظافر قدميه العشرة مطروحة أمام عينيه، ولونها داكن دكنة سوداء كابية، نظر في

الأمر قليلاً، ثم تكلم بنبرة مليئة بالشك، قائلاً: هل تقصد أن وجهة نظرك، أن الولد يجب أن يذهب إلى المدرسة؛ لأن هذه هي الطريقة التي ستجعل له مستقبلاً؟ أجابه موررويا بحسم: طبعاً.. بدون كلام آخَر.

بعد وجبة العشاء قام موررويا ومشى، وهو يحمل ربطة كبيرة من الثوم وعدة فطائر خبزتها له أمي، وقمنا وراءه جميعاً نوصّله إلى سد النهر، فمضى وخلفه ضوء قمر الخامس عشر من الشهر. قدماه طويلتان ومشيته كهيئة المتخبّط خبط عشواء، كأنه جواد مكدود الحيل، وسرعان ما ذاب مختفياً في سرداب الليل حيث تبهت أنوار القمر. مضى، وكأنه لم يظهر في حياتنا، أو لم يجلس معنا إلى مائدة عشاء مليئة بالفلفل الحامي، لكن الرائحة التي كانت تفوح من تحت إبطيه، الرائحة النتنة التي ما كانت تشبه إلا رائحة الثعالب الجرباء، ظلت تفوح في أجواء القرية، وفي ذاكرتي، زمناً طويلاً.

قال أبي للجدة: كلام الرجل هذا الذي اسمه موررويا معقول جداً، وما دام هو بنفسه قد نصحنا بإرسال الولد إلى المدرسة، فما المانع أن نرسله؟ هذا رجل أجنبي وله مكانة معتبرة، ولابد أن نعمل برأيه.. هذا ما أراه وأنتم معي. كذا تكلم أبي إلى الجد والجدة.

تأملتُ ضوء القمر ينسكب من السماء فيلمع منه المغزل المصنوع من عظم الأبقار، كانت جدتي تقبض عليه وتمسك بخيط من صوف، فيتقلب المغزل في دوائر صفراء زاهية، وقد غامت ملامحها، فتعذر عليّ ملاحقة انطباعات حديثها إلى جدي وقد بدا متململاً، ثم سمعت أبي يقول: مادام

ليس عندكما ما تقولانه، فسوف أرسل شوكن غداً إلى المدرسة.

تكلم جدي أخيراً: يدرس؟ يدرس ماذا؟ أنا لم أذهب إلى المدارس في حياتي، ومع ذلك لا أختلف عن الناس في شيء.. آكل وأشرب وأنام مستريحاً، مثل المتعلمين بل أكثر.

لحقته الجدة وأمنت على كلامه: إذا كنتم سترسلونه إلى المدرسة، فمن يرعى النعجتين؟ يا للأجنبي الملعون.. بطن الجوال المنفوخ.. لا يكتفي بالوجبة، بل يريد الطعام كله.

قال أبي: مادام موروويا قد رأى ذلك، فلابد أن نعمل كرامة لوجوهنا، وليس فيها شيء لو ظلمنا النعاج قليلاً، وممكن أن أقول لـ شوكن أن يصحو مبكراً ويقطع الحشيش ويلقيه لها، وعند خروجه من المدرسة، يذهب بها إلى المرعى لبعض الوقت، فهي تظل طول النهار من غيط إلى حقل، تقفز هنا وهناك، لا تسمن بسهولة مع ذلك.

لم ينطق الشيخ وامرأته بشيء، وحطت علينا أسراب من البعوض والذباب، وهي تطن وتحوم في الأركان، والمروحة في يد الرجل وامرأته تهوي ذات اليمين واليسار، وتنفث غضبها المكتوم، حنقاً على أبي وعليّ، دون أن تنسى نصيب موروويا القائم بمهمة التدريس في الفصول الكائنة غرب القرية.

صباح اليوم التالي، أرسلني أبي إلى المدرسة، وكنت قد رأيت وأنا خارج من البوابة الكبيرة تلكم النعجتين مربوطتين إلى وتد خشبي بجانب الحائط، حيث لاحتا في نظر جدي وجدتي كأنهما لؤلؤتان صافيتان في

كنز مخملي، بينما كانتا تلتقطان كومة العشب واحدة وراء الأخرى وقد اختلطت بالندى، ورفعتا رأسيهما وتأملتاني بعيونهما الزرقاء الباهتة، ولم يعد على جسديهما شيء من الصوف بعد أن جزّته الجدة، فظهر الجسد محمرّاً حمرة وردية، سوى الرأس والذيل والأقدام إذ بقي فيها الصوف على حاله، فأصبح شكلها قميئاً وفي منتهى الغرابة، والنعجتان في الواقع ذكر وأنثى، أخ وأخته قد طال بهما الأمد في ممارسة سفاح القربى، فمن حظهما أنهما كانا من فصائل النعاج، وإلا لو كانا من بني البشر، لقام أهل القرية برميهما بالحجارة حتى الموت. ثم إني تذكرت منظر إغراق فتى وفتاة تابعين لأسرة "شوجيا" حيث قام كبير العائلة بتقييد جسدي مرتكبي السفاح إلى طاحونة قديمة حتى غاصت بهما في بحيرة العشب، وكان أنّ الولد والبنت لم ينطقا بكلمة طوال ماحدث، وظلت عيناهما بارزتين تنظران شبح الموت العاجل، ولابد أن العشب الذي لاكته النعاج كان مما حشّته أمي في الصباح الباكر؛ لأني رأيت الطين عالقاً بنطالها ومداسها.

لما صعدت إلى أعلى سد النهر، ألقيت نظرة فإذا جداي واقفان لدى شاطئ النهر يفردان شبكة كبيرة في الماء، ويوغلانها بجانب منطقة الحشائش الخضراء المتاخمة للشط، فعرفت أنهما يصطادان القريدس الذي هو نوع من الجمبري، وخصوصاً النوع الداكن اللون، فهذا النوع بالذات يتحول لونه إلى الأحمر البرتقالي إذا ماوضع لفترة قصيرة في الماء المغلي، فيلذ طعمه بدرجة لا توصف، ولو أني لم تواتني الجرأة على أن أقرب ما كان يصطاده جدي من القريدس بأي حال، لأنه كان طعامه المفضّل، لكني كنت أحياناً أستغل ما كان ينتاب جدتي من لحظات انشغال أو غفلة، فأسطو خفية

على بعض منها، وبينما كان القريدس الغليظ يَخِزُ جانب فمي بشواربه وذيله المشعث، فقد كانت تنتابني من جراء ذلك الإحساس لذة غامرة. ذات مرة ضبطتني جدتي متلبساً بهذه الفعلة، فاندفعت بكف يدها على رقبتي تريد أن تسد حلقي؛ كي أتفل ما مضغته تواً، وكانت تواجهني بملامحها المكشرة وصوتها يكاد يمزق غشاء أذني، وأصابعها الرطبة الباردة تكاد تنغرس في قصبة حلقي، لكنني لم أتنازل عن ابتلاع ما مضغت، حتى عندما كانت تحاول أحياناً أن تمد طرف أصبعها في حلقي لتلتقط فتات طعام البحر، فكنت أعض أصابعها برفق، على سبيل التحذير بادئ الأمر، حتى إذا تراجعت أصابعها قليلاً، انتهزت الفرصة فابتعلت كل ما في حلقي دفعة واحدة، ذلك أني كنت قد أدركت بوضوح تام أن جسدي الذي يمر بمرحلة النمو وعقلي الذي يكبر، وكل الوظائف الحيوية تحتاج إلى البروتين وغيره من العناصر الغذائية، فأحسست أني مع كل حفنة من القريدس، تزداد صحتي نمواً وأمتلئ سخونة وعنفواناً، كان ذلك إحساساً بصحة تزداد انفتاحاً، وكأني بالخلايا المنقسمة والمتكاثرة تصدر أصواتاً تتفاعل داخلي كمثل طقطقات المطر فوق العشب الناضج، كلما ازدردت قطعة من ذاك الطعام الشهي، صار لي مثل لحم القريدس وذكائه، فلما تنامت وكبرت خلايا عطاء البحر، تعاظمت قدرتي على إتيان الأحلام.

ربما كان عمري وقتها خمس سنوات أو نحو ذلك، وفي ذات ظهيرة صيف حامية، استلقيت فوق فرن حام كأنه رغيف خبز مقلي بالزيت، ونمت سريعاً، فرأيت في منامي الخابية الكائنة في الحوش وقد انكسرت بكل هدوء دون نأمة صوت، فسالت منها المياه وملأت الفناء كله، بل

وخرج من الجرة المكسورة سرطانان كبيران كنا نربيهما داخلها، فزحفا على الأرض المبللة بالطين، وقفزا على سمكتين كبيرتين كانتا تعيشان داخل هذه الخابية نفسها، فإذا بديك منتفش الذيل قد أقبل حتى مال برأسه ونقر السمكات في عينها، فما لبثت إلا وقد أفقت من نومي فجأة وقمت واقفاً فاندفعت صوب الفناء، فلم تلبث اندفاعتي المفاجئة أن أفزعت والدتي التي كانت ترش مبيد الناموس في الغرفة، فصاحت بي: شوكن، ماذا بك؟ فيم لهفتك هكذا؟

قلت: انكسرت الجرّة.

وما كدت أنطقها حتى انكسرت الخابية الفخارية فعلاً، وصارت المشاهد التي رأيتها في الحلم رؤيا عين شاخصة.. وكل المناظر تحققت.

ورأت أمي كل الوقائع بعين ملؤها الفزع، وسحبت شطفة من الإناء المكسور وتطلعت فيها بنظرات ملؤها الحيرة والشك، وأثار الصوت جدي وجدتي فجاءا يستطلعان الخبر، بوجوه جمدتها المفاجأة، ثم ألقيا عليّ باللوم في كسر الخابية، فدافعت عني أمي، لكن دفاعها لم يصمد في وجه المنطق المتحجر، وأشارا بأصابعهما المدببة في وجهها، قائلين: "كيف تنكسر إذا لم يكن قد احتك بها؟ حماية ولدك لا تكون هكذا، وعلى رأي المثل السائر: من أراد أن يقتل ولده، فليبدأ بالتدليل!

لم تجد أمي سوى أن تصمت، ففكرت أن أنافح عن نفسي، فحضر أبي وكأنه قد سقط علينا من السماء ليفصل بين جبهتين متصارعتين، لكنه وبتحريض غادر من الجدين، ناولني كفاً غليظة، ولكمة في الصميم، و لم

يبخل على والدتي، هي الأخرى، بركلة معتبرة، فأخذت وجهها بكفيها وبكت، بيد أني لم أبك، وأحسست بفائرة غضب تأكل صدري، فكززت على أسناني قائلاً: سيأتيكم يوم الحساب على يدي.. ولن ينفعكم الندم! ولتقطّعكم مئة ألف سكين يا أوباش.

ما كاد الشتم ينفصل عن لساني، حتى ناولتني أمي عدة أكف حامية على صدغي. المشكلة أن الضرب كان حقيقياً، هذه المرة، بيد من حديد، وشعرت كأن كفها تتطوح بعيداً في حركة ارتدادية بعد كل صفعة، كأن كتلة رأسي قدّت من حجر صوان، فاضطربت عظيم الاضطراب، وتناوشتني المشاعر، وللحظة اختلطت في عيني صورة الخصم والصديق.

في الليل تكوّمت مقرفصاً، على ظهر الفرن، والجو يعبق برائحة الشيح، وكنت أتقطّع من الغيظ والمرارة، وجاءني صوت أمي تنهيدة عميقة، وسرعان ماشعرت بيدها المغطاة بشرنقات حرير تداعب رأسي، وتمسح بالأنامل فروة رأسي، فأشعر بحكة أظافرها، بل أسمع تكشّطها.. تس.. تس.. ثم إن الأم تنحّت عن صفوف الأعداء، وانضمت إلى تحت رايتي، وقالت: اسمع يا شوكن ياولدي.. إياك أن تفلت لسانك هكذا، فليس ثمة سوى جدك وجدتك، واحترامهم واجب وإلا حرقتك السماء برعودها.

– كيف يا أمي وقد رأيت بعينيك، فلم أكن أنا الذي كسر الخابية.

– أتراك رأيت هذه المنظر في الحلم؟

– صدقيني يا أمي.. فأنا لم أقل كذباً.

أطبق الصمت علينا، ورغم أني قد أغمضت عيني، فقد كنت أرى أمي، بعيني المعتمة، وكانت تحدق في الظلام غارقة في أفكارها.

قالت لي أمي: "اسمع.. اعمل لي معروفاً، واحلم من أجلي حلماً يبيّن لنا من الذي خطف الفطائر الخمس التي ضاعت السنة الفائتة، أتذكر تلك الواقعة؟ عندما اتهمني جداك، ظلماً، بأني أنا التي سطوت على الفطائر من وراء ظهرهما، ومازالا لليوم يرددان ذلك الافتراء.

سمعاً وطاعة، سوف تكون رؤياي تبرئة لساحة الأم.

وحلمت تلك الليلة بالفطائر المشار إليها، ورأيت فيما يرى النائم أن ابن عِرْس خطفها وجرى بها ليخفيها في كومة القش الكائنة عند جذع شجرة قديمة متاخمة لشجرة المشمش القائمة في صدر الفناء، فكان يكوّر فتات الفطائر ويقبض عليها بأسنانه الحادة، فيهرول على أقدام أربعة قصيرة إلى مخبئه. كذا تبدّت لي مناظر الحلم فقصصتها بتمامها على أمي، فقالت:

شوكن، لا تذكر حلمك لأحد من الناس كائناً من كان.

وبعد أيام قالت أمي لجدتي وهي تحادثها: الشجرة القديمة تهرّأت ولابد من قطعها، وإلا وقعت علينا فجأة.

غضبت الجدة وقالت لها: وما الذي منعك من قطعها طوال هذا الوقت؟ أنا عن نفسي لم أعد أطيق رائحة العفن التي تفوح منها كل يوم،

وأتحمل على مضض ولا أشكو إلى أحد لأجل خاطرك، ولماذا كل هذا العناء؟ وهل سأعيش أكثر من الأجل المكتوب؟ الميت بعد أن يغمض عينيه وتنفرط يداه، لا يعود ليأخذ من الدنيا فلساً واحدا ينزل به في مقبرته.. ولذلك فأنتم أحرار، أقولها لك.. أنتم وشأنكم؛ سواء قطعتم شيئاً أو تركتموه على حاله، أو حتى قلبتم الدنيا رأساً على عقب، فهذا أمر يخصّكم، ومن اليوم فصاعداً، لن أضمر لكم خيراً ولا شراً؛ وبالمرة أريح نفسي من وجع الدماغ، لئلا يأتي صغيركم الجميل هذا، بعد أن تنصلح أحواله، ينتقم مني ويقطّعني بالسكاكين!

في أنفاس متلاحقة حاولت أمي الاعتذار، وقالت لها إن شوكن مجرد طفل لايفهم شيئاً، وإنها لا تدري من أين جاء بكلام الرعاع والسفلة هذا، ولابد أنه سمعه في مكان ما، وقلّده من دون أن يفهم معناه.. والأطفال كلهم هكذا.

أجابتها جدتي قائلة: اقطعوا الشجرة كما ترون! لكن أريد أن أقول لك إنك مهما كان كلامك معسولاً، فلن يغير من الحنظل الذي تسقونني إيــاه.

بنظرة تقدح شرراً من جانب عينها، حدجتني العجوز، فشعرت أن حنقها عليّ راسخ في أعماقها كعظام جسدها.

أزالت أمي طبقة الحصير المتهرئة من حول كومة الحشائش، فثار الغبار، وبدت أكوام القش المتشابكة وقد تصرّمت في السنين.

وإذا بأمي تمد يدها فتجد قطع الفطائر وقد غلفتها طبقة من الزغب الأخضر، بدت إحداها تامة الشكل بينما ظهر على الأخريات أثر الأسنان الحادة، فأحالتها بعض فتات، وصاحت الأم من الدهشة: تعالي يا أمي.. انظري هنا.

أقبلت الجدة مترددة تتساءل:

- ماذا تريدون أيضاً.. أنظر ماذا؟

بلمحة أدركت، فاكفهرّ وجهها وعادت أدراجها دون كلمة.

تطلعت إلى وجه أمي المشحون بالانفعالات وقد غامت عينها وراء الدموع، بينما اجتاحني شعور بالابتهاج؛ إذ رددت إليها اعتبارها ورددت عنها تهمة ظالمة بفضل حلم، راجياً أن تصحبني دائماً موهبة الأحلام الكاشفة، غير أني فوجئت بجدتي تنقلب علينا مثل عاصفة سوداء وقالت بنبرة ملؤها السخرية التي لايحتملها انسان صبور بطبيعته:

ولماذا لا تكون المسألة، من أولها لآخرها، مجرد سرقة تم إخفاؤها في الكومة؟

معنى هذا، بوضوح، أنها تتهم أمي بالسرقة، فصحت فيها غاضباً:

- قد حلمت بما حصل، وابن عرس هو السارق!

كان ابن عرس في الحلم ضخماً للغاية، لم أر لضخامته مثيلاً! قالت جدتي: عشت سبعين عاماً، و لم أر حتى الآن ابن عرس ذا ساقين.

رأيت المنظر وكأنه حلم يقظة، فما إن حملت أمي كومة القش، حتى قفز منها ابن عرس كبير الحجم، وبدا كأنه يومئ برأسه ناحية جدتي، ثم انسل هارباً بمحاذاة الجدار.

وقعت الجدة من طولها، وأخذت تتمتم في رجفة:

– "هوانغ داشيان شوتزوي".. غفرانك يا ملاك هوانغ، السّماح يا أولياء!

ألقت الأم كومة القش في فزع، وأسرعت بيد مغبرّة تعين جدتي على الوقوف، فأسندتها وصحبتها حتى أدخلتها الحجرة، وقد وقع في ظني بادئ الأمر أنها ستثأر لنفسها، وتكيل للعجوز أغلظ العبارات؛ لتكسر لها رأسها المتبجّح المستفزّ، وخيلاءها الفارغ؛ عساها تطأطئ خجلى أمام برهان الحقيقة الراسخ رسوخ الجبال، لكن إذا بها بدلاً من هذا، تتصرف بمنتهى التواضع والأدب الذي يفوق مابذلته لأي أحد من الناس فيما مضى من أيامها، وكأن المظلوم في الحكاية هو المرأة الأخرى وليست هي نفسها، فأخذتني الحيرة وانكسر خاطري.

قالت لي أمي: أنت مازلت صغيراً.. ولا تفهم الكثير.

بعد واقعة انكشاف ابن عرس بعدة أيام، شعرت أن موقف الجد والجدة من ناحيتي قد تغير بعض الشيء، وخصوصاً جدتي؛ حيث لم تعد تعاملني باحتقار، وتبدلت نظرتها لي وكأني عفريت هبط إليها من عالم السحر والأسرار، وأظن أن والدي قد استطاع، في ظل تلك الظروف التي تهيأت لصالحي، أن يجد الفرصة المناسبة لإلحاقي بالمدرسة.

وقف جدي إلى شاطئ البحر يصطاد القريدس، وأدركت أنه قد لمحنا. كان أبي يمشي ممسكاً بيدي وأنا أتعثر بالخطا فوق منحدر السد النهري، والأرض تحت قدمي مبللة. قال له أبي:

– سأوصل شوكن إلى المدرسة.

غمغم جدي بشيء لايبين، ثم رفع الشبكة بحركة مفاجئة من ذراعه، فجعلها في وجه التيار، وبحركة دائرية بسيطة رفعها ثانية، فاضطربت النباتات البحرية الناشئة على الحافة، وبقبقت المياه وحومت الدوامات ففارت العكارة على سطح الماء، وتأملت مربعات الشبكة وهي تتقلب بقفزات القريدس المضطرب وهو عالق بنسيجها، تكاد من فرط شفافيته ترى باطنه من الظاهر، حينذاك شعرت وكأنه يتنطط في جوفي أنا، تدبّ فيه الروح.

كرر أبي على مسامعه مرة أخرى، وبغاية الإجلال، خط سيره وأوضح له أن غايته توصيلي إلى المدرسة.

وفي منتهى الهدوء أفرغ الجد صيد شبكته في الجوال المطروح بجوار قدمه، ثم التفت نحونا متبرّماً، وألقى عليّ نظرة قائلاً:

– الحق بطريقك، هيــا امض سريعاً، وعموماً فالأقدار بيد السماء، ولا فائدة من كثرة التفكير وإطالة التأمل.

قال له أبي: دع الولد يتشرّب الدراسة لبعض الوقت.. (ننقعه) في المدرسة مدة العام أو نصف العام، ونريح ضميرنا من هذه الناحية، ولعله يستفيد شيئاً ولو ضئيلاً.

أشاح جدي بيده ضجراً وقال: طريقكم.. الحقوا بالوقت، ولاتعطلوني عن شغلي.

تطلعت في شغف شديد إلى القريدس، الذي هو جمبري البحور، وهو يتنطط في الجوال الكتاني وحلقي يتشوق إلى طعمه، حتى كدت آخذ لنفسي واحداً منه فألتقمه نيئاً يتلوّى، وقد لاحظ جدي تقريباً أفكار قلبي فرفع الجوال ودفعه ناحيتي بكل قوته حتى كادت فوهة الكيس أن تصطدم بأنفي، وقال لي بهدوء ثلجي:

– مد يدك وكل.. على راحتك!

لم يشغلني النظر إلى وجه جدي ولا وجه أبي، بل انصب اهتمامي كله على القريدس الذي بداخل الكيس، وراح كلا الرجلين يسخران مني، ويشبهانني بواحدة من تلك القشريات التي يصطادها الجد، و لم أعبأ بشيء مما يقولان، مادام القريدس في متناول يدي وفمي، وليتهكما كما يشاءان، حتى لو قالا بأني كلب شارد في الأزقة والطرقات.

مددت يدي دون تردد إلى الجوال وقبضت على مقدار حفنة ملء الكف، فدفعتها إلى حلقي، وشملني إحساس باللذة تغلغل في كياني كله، و لم ألبث أن مددت يدي إلى داخل الجوال ثانية فالتقطت حفنة أخرى ألقيتها في جوفي سريعاً، وهنالك قبض والدي على ذراعي بقوة وحسم، ثم سحبني وراءه حتى طلعنا إلى سد النهر.

ماذا في القريدس حتى تأكله نيئاً؟ سألني والدي وعلامات الدهشة والحيرة على وجهه.

وإذ أستعيد ذكرى سؤال الوالد لي على هذا النحو، أكتشف بأنه كان يفتقد إلى الذكاء والبداهة؛ فمن ذا الذي يهتم إذا كان القريدس نيئاً أو مشوياً، وهل يحتاج المرء، لكي يأكل القريدس، أن يتساءل أصلاً، فضلاً عن أن يتساءل بـ "لماذا"؟

لم أستطع وقتئذ الرد على سؤال أبي؛ لأن جوفي كان محشواً بالطعام، بينما أخذ هو يدفعني في كتفي يستحثني على عدم التلكؤ وابتلاع ما في فمي بسرعة، ولا أدري كيف مشيت معه حتى بلغنا مبنى الكنيسة عند الطرف الغربي من القرية، وكنت لمحت قمة المبنى وأنا ماشٍ فوق سد النهر، ورأيت علامة الصليب الكبيرة المنصوبة على سطحه، وهي العلامة الغريبة التي كانت تضفي على قريتنا القديمة مسحة من الجلال والفخامة، وإن كنا نغضي عن الاهتمام بالتطلع إليها، غير أن الأجانب كانوا عندما يرونها، ولو على مبعدة، يقطعون المسيرَ فجأة ويتأملونها في دهشة.

وقف والدي عند مدخل الكنيسة ورسم على صدره علامة الصليب، بينما كان يتلو شيئاً بصوت خفيض، ختمه قائلاً "آمين". لم يكن في قريتنا كلها واحد يضارعه في طهارة قلبه ولا في إيمانه، ولعل أحداً من كل اليسوعيين لم يكن يضارعه صدقاً وإخلاصاً، بيد أنه كان في الوقت نفسه أقرب الناس إلى قلب المبشر موررويا.

كان موررويا هذا واقفاً بنفسه عند باب المدرسة، يستقبلنا بابتسامة ساذجة، وسرعان ما أخذ يربت على رأسي بلطف قائلاً:

– شوكن، كنت قد اضطجعت مع أمك، وها هو ذا الحَمَل الوديع قد جاءنا أخيراً.

رددت كما تُرد السن بالسن، قائلاً:

– موروويا، وأنا قد نمت مع جدتك، فجئتنا كما يجيء التيس الجبلي آخر المطاف.

بدا الذعر على وجهه، لكنه أخذ يضحك وهو يفرك كفيه، بينما شارباه يهتزان في ارتجاج ضحكته، وكان أبي هو الآخر يضحك.. هئ هئ هئ، ببلاهة ليس كمثلها مثيل.

أرسلني موروويا إلى الفصل، وكلمة الفصل هذه من قبيل المبالغة؛ لأن فصول المدرسة كلها لا تزيد عن كونها مجرد قمرتين متجاورتين تقعان في الجانب الغربي من الكنيسة، كانتا في الأصل مهملتين لاحتوائهما على بقايا أشياء قديمة لا أدري ما هي بالضبط، وتم إخلاؤها فيما بعد جميعاً وأعيد ترتيبها لتضم عشر مناضد خشبية فضلاً عن لوحة خشبية دهنت بسناج الأفران والرماد المتخلف عن الأواني والقدور من أثر النار، ثم عُلقت على الحائط الكبير في صدر المكان، وكان بالفصل نحو ستة أو سبعة تلاميذ في مثل سني تقريباً، وعلى باب الفصل وجدت شاباً شاحب الوجه ذا شعر طويل مسترسل، رحّب بقدومنا، فقدمه لنا موروويا قائلاً: هذا مدرّسكم، وهو خريج أكاديمية "سان جون" العليا بشنغهاي.

بعد ذلك مباشرة أقيم حفل افتتاح الدراسة، وكان من أهم رواده الناظر

الشرفي للمدرسة، المبشّر مورويا، وكبير أعيان القرية من آل شوي، العم شوي تسايجو؛ كما شارك في الحفل التاجر الكبير "هوسي نيان"، صاحب سلسلة المطاعم الشهيرة، وطلب مورويا من أبي أن يذهب ليشرف على بعض الأنشطة الاحتفالية التي ستقام في مدخل الكنيسة، وأهمها جميعاً المفرقعات التي تنطلق في الأجواء فتجتذب بدويها الهائل أعداداً من القرويين من المناطق القريبة، وتنبّههم إلى بدء الاحتفال المقرر، وبالفعل فقد جاءت أفواج كثيرة منهم، وجمهرة غفيرة من الأطفال الذين كانوا يحملون على ظهورهم وأكتافهم إخوتهم الصغار، فلما قارنت نفسي بأحوالهم المشعثة وجدتني خليقا بالفخر.

مع ختام الألعاب النارية، وإطلاق آخر جعبة في المفرقعات، أعلن مورويا بكل مهابة وإجلال افتتاح مدرسة "ماري" للتعليم الأساسي، وكانت أول فقرة في برنامج الافتتاح الجديد، ترتيل قداس للرب، وصارت عيون مورويا والمصلين دامعة في خشوع وهم يرتلون معاً في صوت واحد صلوات صاعدة إلى السماء، كأن الشيخ الذي سالت من رأسه خيوط دماء مطّلع علينا فوق رؤوسنا، ينصت ملء آذانه للأناشيد والصلوات.

انتهى الحفل وذهب الجميع بمن فيهم مورويا وأعيان القرية إلى القاعة الرئيسية، وبقينا نحن، مجموعة من التلاميذ الأشقياء مع ذلك السيد شاحب الوجه ذي الشعر المسترسل، ويبدو أنه أراد أن يقول لنا شيئاً، لكنه ما إن استعد للكلام حتى فاجأه السعال الحاد، فغطّى فمه بيده وأخذ يسعل طويلاً، فلما أفاق من ذلك نظر إلينا وأظهر لنا كف يده الذي كان يخبئ به

وجهه، فإذا الكف ملوث بالدماء، ثم إنه تكلم إلينا قائلاً:

أرأيتم منظر كف يدي؟ قد جئت إليكم برغم مرضي العضال، لا أبغي سوى أداء رسالتي في نقل المعرفة والعلم لكل واحد منكم، فإذا بقيتم تتعبونني هكذا، دون أن تأخذوا مسألة الدراسة بجد واهتمام، فلا تلوموا إلا أنفسكم.

جاشت نفسي بالمشاعر، فنظرت إلى التلاميذ الجالسين حولي، فإذا وجوههم بليدة كألواح خشبية مصمتة، حتى ذاك الذي أصبح فيما بعد رئيساً لمكتب ضرائب المحافظة، المدعو "لي دونغساي"، إذا به وسط تلك الأجواء المفعمة بالمشاعر، يضرط بصوت عال، فيثير هوجة من الضحك ارتجت لها أنحاء الفصل، فاستحال وجه المعلم كتلة من الإحباط والأسى والانكسار الذي لامزيد عليه، فضايقني تصرفه الأحمق، لكني نظرت إلى طوله الفارع وجرمه الهائل وأدركت أني لن أصمد أمامه في خناقة يحمى فيها وطيس العراك، وإلا كنت وثبت عليه فقبضت على أم رأسه وصدعت وجهه في الحائط حتى تتهشم أنفه وتبرُقَ في عينيه نجوم كالشرر، ثم أنزع عنه بنطاله بيد، وباليد الأخرى أغترف حفنة من طين راكد فأدفعها في ثقب استه سدادة من وحل وقطران، ثأراً للمعلم المسكين الذي تفل في كف يده الدماء.

هدأ كل الزملاء وقتئذ، وتمكن المعلم "تشن" من السيطرة على الموقف وتهدئة الوضع تماماً، ثم أمسك بإصبع طباشير أصفر وكتب على السبورة ثلاث كلمات بخط كبير: هذا هو اسمي.. تشن.. سان.. إينغ؛ لقبي هو

"تشن"، والاسم إينغ (ابن عطاء الرب)، وأظن أنكم جميعاً بعد أن دخلتم الكنيسة، رأيتم وشهدتم القدّاس. هناك ما يشير إلى الملائكة المجنحة من الذكور يطوفون بالملأ الأعلى: أنا أحد أولئك.

ضحك البعض سخرية، فقال المعلم: لا تستهزئوا، فأنا أتكلم بجدية، فقد حلمت ليلة أمس بأني أحلق بجناحين في الأفق البعيد حول عرش السماء.

قال المعلم: اكتبوا أسماءكم، فكتب كل واحد اسمه: لي دونغساي، تشانغ ليشن، آباوكو؛ واشتد الصخب بين التلاميذ، وقلت إني أُدعى شوكن (جذر الشجر).

قال المعلم ضاحكاً: اسم فريد من نوعه.. جذر الشجر.. لكن ترى أي نوع من الشجر؟

قلت: ليو شو كن (جذر الصفصاف)

قال: رائع جداً.

بعد هذه الـ "رائع جداً" بدأ المعلم المجنّح، ابن العطاء المقدس، يشرح أول دروسه، لكن ملامحه الجادة وكلماته ذات الدلالات العميقة ذبلت بتأثير السعال المختلط بمخاط الدم وأسراب الذباب التي ملأت الفصل بشكل غير عادي، وقد فاحت في الأجواء رائحة الدماء المتناثرة من فمه، وتعاظم الاحساس بالاشمئزاز، وكان لمعان المخاط في أقدام وأجنحة الذباب يصيبنا جميعاً بالدوار، فلم ألبث أن نمت ودخلت في الأحلام،

حتى رأيت طفلاً جميلاً كملاك مجنّح يبول فوق علامة الصليب، ثم رأيت موروويا يُقعي إلى جانب نعجته الحلوب يعتصر ضرعها، وهنالك أخذ المعلم تشن ابن العطاء الأقدس يميل برأسه وقد انتابته نوبة سعال حادة تفجرت منها دفائن القلق في أعماقنا، وتأملته فإذا وجهه كالذهب الأصفر، وفاحت في وجهي، حينئذ، رائحة منبعثة من جوفه أشبه ما تكون بما يفوح من الزنجار الذي هو شائب النحاس القديم، ثم لم يتمالك أن وضع يمناه على فمه وبيسراه لوّح لنا، قائلاً: اذهبوا.. اذهبوا جميعاً.. انتهى الدرس، فانطلقوا إلى بيوتكم. كان وجهه كتلة من الإرهاق وقد طفح به الكيل منا، ولم يدرِ أن كيلنا نحن قد فاض إلى حد الطوفان والغرق، وقد بلغ السأم مبلغه، وهكذا فقد انطلقنا نعدو ونصيح، وصار لكل فم صراخه.

وكان أني تطلّعت، فيما أنا خارج من الفصل، فرأيت موروويا بجسده الضخم وقد أقعى فعلاً بجانب نعجته ممسكاً في يسراه بآنية خزفية وبيده اليمنى يعتصر الحلمات المتضخمة بلونها الوردي الهادئ، والحليب الأبيض المختلط في شيء من الزرقة الخفيفة يندفع في الإناء فيشق الحليب المتجمع محدثاً صوتاً مميزاً.. تشي.. تشي.. في كل اعتصار دفقة طازجة. والرجل الأجنبي الكهل منشغل بما في يده، بكل انتباهه، لايلتفت إلى أحد، والشمس ترسل سخونتها الحامية على ظهره وعنقه وقد سالت قطرات من العرق المختلط بالتراب، فبللت قميصه عند أكتافه وأعلى الظهر، وبدا شعره الأشيب المجعد يتموج في لمعانٍ يتردد جيئة وذهاباً، بينما اشتدت حمرة رقبته وسمعت كأن لهاثه يخرجُ من قمة رأسه، وكانت النعجة منفرجة الساقين الخلفيتين مقوسة الظهر في انحناءة خفيفة رافعةً ذيلها حتى ظهر

نسيج بطنها المتورد، وكانت رأسها تميل إلى الجانب قليلاً وهي تتطلع إلى السيد موروويا بعين ساهمة ثم تخفضها كأنثى عريقة الامتثال، وكانت أحياناً ترفع عينها قليلاً لتلقي إلينا نظرة خاطفة غير عابئة بشيءٍ، كأنها ترمينا بكل ما في العين من احتقار، وكانت الآنية تمتلئ رويداً بالحليب الذي تدفق فيها شيئاً فشيئاً ويتردد صوت تدفقه في السائل الرجراج، فتتكاثف مادته وتدور بشبه الدوامة على سطحه ذي الرغوة، ثم سرعان ما يجف الضرع الذي كان محتقناً ويصير قطعة متشنجة من الجلد في جسم شاة مهزولة، فيقوم السيد موروويا واقفاً منهَك القوى، فيدور الهواء في جنبات المكان على إثر وقفته، وتدور معه رائحة الغنم الزنخة وتندفع في أنوفنا، ويلتفت بجرمه الكبير فيواجه خيوط الشمس الحامية وتقع في عينيه فيزرّهما، وإذا به يعطس عطسة يهتز لها بكل كيانه، فيتأرجح الحليب في الإناء ويندلق، ويقع شيء منه على الإصبع البيضاء الغليظة في كفه، فيصب من الإناء المليء حتى آخره على يده الأخرى، ويمد طرف لسانه الأحمر الممتلئ ويلعق إصبعه، ثم يقول بصدر منشرح:

الشكر للرب يا أولاد، الشكر لمن وهبنا ضياء الشمس والهواء وحليب الشاة الطازج، آمين.

ثم يدور بإصبعه المبتلة بالحليب على صدره بعلامة الصليب.

قلت وأنا أحذو حذوه: آمين.

كان الإناء في يده وهو يمضي متثاقلاً، فلما رفعت رأسي حانت مني

التفاتة إلى علامة الصليب الرمادية المنتصبة فوق قمة الكنيسة، فرأيت غراباً أسحم جاثماً فوقها.

على المائدة في بيتنا سألتني جدتي بخبث لاتداريه عما تعملته في الدرس الأول، وهل أعرف الآن بالضبط كيف يؤتَى بالذئب من ذيله، لكنني كنت أنظر بعين نهمة إلى الطبق الخزفي الموضوع قدام جدي وقد امتلأ على آخره بالقريدس بعد أن استحال لونه إلى الأحمر البرتقالي، بينما رحت أرد على السؤال وأنا شارد الذهن تماماً، وأنا أقول:

قال لنا المعلم تشن إن الرب أخذ واحدة من الأضلاع فصنع منها الإنسان.

لم تتمالك جدتي أن ردت بغضب، قائلة: فساء الكلب في وجهك! كم قلت لك من قبل.. قلت لك ألف مرة، وإن لم يكن ألف مرة فتسعمئة وتسعاً وتسعين مرة، إن الأم الكبرى "نيوا" هي التي خلقت الإنسان من طين كالطمي الأصفر. عجبت للكلام الغريب هذا، إذا كان الإنسان قد خُلق من طين، كيف إذن يفترق الذكر عن الأنثى؟

لم أكن مغرماً أدنى غرام بالتعمّق في مسألة خلق الإنسان، و لم يكن في أعماقي أي نزوع لأي سفسطة في هذا الشأن، الشيء الوحيد الذي ملك عليّ نفسي كان القريدس، الذي هو الجمبري الأصفر.. يتنطط ويتشقلب ملء أعماقي.

قال جدي وهو يمضغ طعام البحور بشهية مفتوحة على آخرها:

المدارس التي من مثل هذا النوع تتلف أدمغة الأطفال، ولا تدع أحداً منهم دون أن تخرّب رأسه.

رسم أبي على صدره علامة الصليب وهو يغمغم قائلاً: سامحنا يارب!

شزر إليه جدي بعينه القداحة بالشرر وهو يكظم انفعاله، ثم حشا جوفه العميق بحفنة هائلة من قشريات البحر.

وما هي إلا لحظة حتى حدثت جلبة فوق عارضة العامود الحامل للسقف، فرفعت رأسي أنظر ما الأمر، فإذا فرخ طائر السنونو قد مدّ مؤخرته من العشُ الكائن فوق العارضة وتغوّط كتلة زبل بيضاء وقعت ساخنة فوق العروق الزرقاء النافرة في ظهر كف جدتي.

بصقت العجوز غيظاً وقامت واقفة وذهبت لتغسل يدها وهي تثرثر: سوف أنتهي من الأكل حالاً وأطفشكن من العش.. كل الأشياء صارت أخلاقها منحطة، حتى الطيور ساءت أحوالها، هل كانت أفراخ السنونو في زمن أجدادنا الطيبين تجسر على أن تبول على الناس هكذا؟

اقتنصت فرصة تطلُّع جدي ناحية عش الطير فوق العارضة العالية، فمددت يدي إلى الآنية المليَئة بالقريدس، لكنه كان أسرع مني في ملاحظة حركاتي الخاطفة، وحال بيني وبين التقاط أية واحدة من قشريات البجور.

تحت الليل، ربتت أمي على رأسي قائلة لي: شوكن، يابني، متى ستتوقف عن النهم، وتتعلم القناعة.

ليس في الدنيا كلها من يستطيع فهم مشاعري الحميمية تجاه القريدس، حتى أمي لا تفهم ذلك، فهذا هو السر الذي انغلق عليه قلبي، السر الذي داريته عن الجميع كما يداري المرء سوءة الإثم.

ما إن بزغ صباح اليوم التالي حتى قمت وذهبت إلى المدرسة، وقبل أن أبلغ بوابتها قابلت في طريقي أحد زملاء الدراسة ويدعى جاو تشونليان، وكان في حالة شديدة من التشوش والاضطراب، حتى قال لي: أسرع بالعودة إلى بيتك يا ليو شوكن؛ فقد مات المعلم تشن شنغ ين ليلة أمس.

لم أصدق، وأخذت الطريق ركضاً حتى بلغت الكنيسة، وبالفعل رأيت المعلم تشن شنغ ين ممدداً تحت شجرة بجوار الجدار الكبير، ووجهه مغطى بصحيفة بيضاء، وأسراب من الذباب ذي الوجه الأحمر تحوم حول أطرافه.

ما إن رآني السيد موررويا حتى صاح فيّ بانفعال شديد: شوكن، ارجع إلى البيت بسرعة وقل لأبيك أن يأتينا في الحال، قل له إن الأستاذ تشن قد مات، ولابد من البحث عمن يقومون بعمل اللازم بشأن الدفن والجنازة.

...شوكن.. شوكن، انتبه، أفق حالاً، فقد حان وقت الذهاب إلى المدرسة.

رأيت أمي واقفة أمام الموقد الذي اتخذت سطحه فراشاً، وكانت تدعوني بصوت خفيض، يفوح منها عطر كولونيا مختلطاً برائحة الحشائش،

فعرفت أنها ذهبت إلى الغيط في البكور ثم عادت تحمل كومة الزرع، ففركت عيني وأنا أستعيد منظر الحلم في قلق شديد، وألصقت فمي بأذن أمي وقلت لها همساً: حلمت بأن أستاذنا قد مات، رأيته ممدداً في ظل شجرة جنب الجدار، وعلى وجهه ورقة عريضة بيضاء، بينما الذباب هائج على جسده المسجّى.

ما كدت أقص عليها، حتى اكفهرّ وجهها وقالت بجدية: كلام فارغ، كلما فتحت عينيك من النوم تهذي بكلام فارغ!

أنا أيضاً تمنيت أن يكون هذا كلاماً فارغاً تماماً؛ لأنه لو نزل الحلم على أرض الحقيقة فسيكون معنى ذلك انتهاء مستقبلي الدراسي بأكمله، أليس كذلك؟ وساعتها سيكون مطلوباً أن أقوم كل يوم وأسحب النعجتين إلى الأرض وأخوض في الأوحال، وأنزع من رأسي تماماً فكرة أن أصبح شيئاً مرموقاً.. أتخلى عن أن أصبح عملاقاً كرأس التنين، وأبقى في طيات الذل تحت إمرة جدَّيَّ كليهما.

مشيت حذو الطريق الذي مشيته أمس إلى المدرسة، ترفعني وتحطُّ بي مشاعر القلق، عند سد النهر رأيت منظر جدي واقفاً عند الشاطئ، نفس المنظر الذي تحول الآن إلى جزء من مشاهد الحياة الطبيعية لكثرة ما ألفته، وكان يخوض في النهر عاري الساقين، وكانتا رفيعتين كساقي كركي ويهز شبكته على نحو آلي تقريباً، وكانت قشريات القريدس بجسمها الصغير الشفاف تتقافز أمام عيني، وظننت أني لو أغضيت عن رغبتي العارمة في تناول قشريات القريدس النيئة، فلن أفلح في دفع النمو العقلي ودعم عملية

النضج الكافي، ومثلاً فقد استطعت، بفضل قطعتَي القريدس الكبيرتين اللتين أكلتهما بالأمس أن أتمكن من إحراز مستوى فعال وملموس في درجة وضوح الأحلام، بل بلغ تأثيرهما مبلغاً جعل صور الأحلام تكاد تتطابق مع الوجه الأصلي للواقع المعاش.. هنالك تبدو الحشائش خضراء زاهية، والورود في لون الحمرة القانية، وكل مذاق أجد له في فمي طعماً باقياً حتى بعد أن أفيق من الحلم، إلى أن بدت حقائق اليقظة في قلب النهار، إذا ما قورنت بآفاق الأحلام، بعض خيالات غائمة في رؤى ضبابية.

قبل أن أدلف من بوابة المدرسة قابلت زميلي جاو تشانليان، وكان مضطرباً للغاية حتى كاد يندفع في صدري، بينما رفع طرف كمه ليمسح مخاط أنفه، قال:

عد إلى البيت يا شوكن، فقد مات الأستاذ تشن ليلة البارحة.

أسرعت إلى الفناء، ووجدت المعلم تشن ممدداً تحت الشجرة، والذباب الأحمر يحوم فوق جثمانه، والوجه مغطّىً بورقة بيضاء.

ما إن رآني السيد موروويا حتى زعق فيّ مهتاجاً:

ليو شوكن، أسرع إلى البيت وقل لوالدك أن المدرس تشن إينغ قد مات، ولا بد أن يجيء بمن نبحث معهم في ترتيبات الدفن والجنازة.

في ركاب أبي جاء أهل القرية – المتدينون منهم على وجه الخصوص– حتى وصلوا إلى فناء الكنيسة، فأحاطوا بجثمان تشن شنغ ين وأفواههم تنطق بـ آمين، وكل الأيدي ترسم على الصدور علامة الصليب، وقال

أبي: ألم يكن قد تحسّن بالأمس قليلاً؟ كيف يعاجله الموت هكذا؟ عويل السيد موروويا كان يسبقه وهو يقول: هو الآن في مملكة الرب يهنأ بسرور مقيم، فهناك مآلنا جميعاً.

ودار النقاش محموماً بمئة فم وألف لسان، وانصبّت من لدن الشمس وقدة حامية، حتى فاحت في الأرجاء جيفة الأستاذ تشن، وحوّطته أسراب من ذباب البرية، فامتلأت الأنحاء بغائلة الفقد، وصار للموت رهبة في الصدور.

لا يمكن أن نبقى طويلاً: قال أبي. اجمعوا من كل واحد على قدر ما يستطيع ثمناً لكفن بسيط، ثم نكفّنه ونسجيه في النعش ونحمله لغاية أرض المقابر غرب القرية حيث ندفنه هناك.. كذا أقول لكم.

اعترض والد لي دونغتساي قائلاً: هذا مجرد رجل غريب عنا، فلا داعي للكفن أصلاً.. والمسألة كلها لا تحتاج أكثر من حصيرة نلفّه فيها طيتين ونحمله مرة واحدة، وننتهي من الموضوع.

وافق أبي على اقتراح والد زميلي لي دونغتساي، وأشار إلى أحد الواقفين بالذهاب لشراء الحصيرة، ثم رشّ على جثمان المعلم تشن شنغ ين بعضاً من الخمر ليكتم الرائحة المنتنة، وأقبل عليه عدد من الرجال مقطبي الجبين، وجعلوا يلفونه بإحكام ثم ربطوا الكفن بأربطة وعلقوه في حمالات من الخشب فرفعوه ذاهبين به ناحية الجبانات الغربية، والذباب يأبى إلا أن يصحبهم أرتالاً وجماعات يغشى وجوه الأحياء لا يريم، والحصيرة بدت

أقصر من أن تحوي الجثمان بتمامه، إذ تدلت من رأس المعلم تشن خصلات شعره الطويل والذباب يلتف حولها منعقداً.

جنازة المعلم تشن شنغ إينغ كانت في غاية البساطة، وقد جمعت بين التقاليد الصينية والغربية معاً؛ فقد راح السيد موررويا يصلي ويقرأ من الكتاب المقدس، في حين انهمك بعض كهول القرية في قراءة تعاويذ الانتقال السرمدي، وبعد أن أغلقت فتحة القبر أمرني أبي قائلاً: اركع يا شوكن، انحَنِ واسجد لاستاذك تشن.

زممت حاجبيَّ في استياء، فلا هو بقريبي الحميم ولا خصمي اللدود.. أي ليس بيني وبينه ما يؤرق مشاعري سلباً أو إيجاباً.. وإن كان موته المفاجئ قد هالني، فلماذا وعلى أي أساس أنحني ساجداً له؟ قال أبي: اسجد، فمن كان لك يوماً معلماً، فسيبقى للأبد والداً.

فضربت له الأرض برأسي، وإذ خفّضت رأسي لدى ذلك المدفن المنشأ حديثاً، شممت رائحة التراب الأصفر بغير شوب، وبدا أن أسراب الذباب قد حلقت بعيداً، بينما هبت نسمات رطبة من أعماق الحقول، وكان تغريد الطيور في الأجواء يثير في النفس رعشة يتقبّض منها كياني، والحشود واقفة في خشوع أمام المقبرة، كأنهم أشجار صُفيراء قديمة، وحده السيد موررويا كان أشبَهَنا بشجر الحَوَر الأبيض. قال والدي للكاهن:

أليس من المناسب يا أبانا أن نبحث عن معلم آخر، ما دامت المدرسة قد افتُتحت؟

عقد السيد موروريا حاجبيه حائراً، ثم غمغم بشيء وقال دون أن نعرف سبباً لما قال:

يا ربنا، خلّص بلطفك ورحمتك أولئك الذين أفسدتْ قلوبَهم الآثام.

ما كاد ينتهي من صلاته حتى مشى وحده يترنح، والناس واقفون يتأملونه وهو ماض، والجميع يأسى له، وتكلم الرجل الثاني في عائلة فانغ جيا، فقال: تفضلوا.. كل واحد لشأنه، قمتم بواجبكم، وليس أسوأ من تفشي الظلم بين الناس؛ فهنالك تطفر الدموع في مآقي السيدة العذراء.

تفرق الجمع في صمت، وجذبني أبي من ذراعي كأنه يخشى عليّ الفرار. وكان أن أغلقت مدرسة ماري أبوابها، وسمعت أن السيد موروريا أخذ نعجته وربطها في حجرة الدرس التي تحولت إلى مزود خاص بها، ثم تحول فصلنا إلى زريبة للنعاج، وقال أبي إن الحجرة الغربية كانت في الأصل حظيرة مخصصة للنعاج التي يقوم على تربيتها السيد موروريا. وعلى أية حال فقد عادت حياتي إلى سيرتها الأولى، حيث بقيت أرعى البهائم طوال اليوم، من الصبح إلى ما بعد الظهر، بينما انهمك زملاء دراستي الآخرون في رعي الغنم وأم رعي الأبقار، وذلك في أرض المنخفض الكبير الواقع جنوب القرية، والذي لم يكن له صاحبٌ معروف، ورغم هذا فقد كان المرعى خصباً والحشائش وفيرة منتثرة على بقعة عريضة تكاثف فيها النبات، بألوان من كل طيف: الأبيض، الأصفر، الأزرق، وكان منه ما نضر لونه وما شحب ذابلاً؛ وكان ثمة بركة مياه وسط المساحة المترامية، مليئة بأسماك الأنقليس وأنواع من سرطان البحر، وغير هذا كثير كثير؛

لكن الشيء الوحيد الذي لم يكن موجوداً هناك هو القريدس الشفاف.

كنا ذات يوم نلهو فوق حشائش المرعى الكبير، والدواب تجول وسط الزرع في كل اتجاه، تنتقي أنضر العشب وتتنقل في الأرجاء على هواها، فرأينا على البعد رجلاً أبيض ضخم البنية يسحب نعجة ويسير بها، وإذا بنا نتعرف عليه جميعاً، فقد كان هو السيد موروريا بنفسه وقد اعتدنا رؤيته بصحبة خادمه المخصص لرعي أغنامه، فكان يقطع لها الحشائش ويقدمه لها في المزاود، لكنه اختفى فجأة بعد موت المعلم تشن، و لم نعد نسمع له حساً ولا خبراً، غير أني حلمت في المنام بما آلت إليه أحوال ذاك الخادم، لكني لم أشأ أن أخبر أحداً، ولا أظن أن أحداً كان سيصدقني لو قصصت عليه ما رأيت.

رائحة الغنم الزنخة فوق جسد السيد موروريا كانت تنتقل مع الريح، فتفوح في الأجواء وتأتينا من بعيد، وكلما اشتدت الرائحة ازداد قرباً، حتى إذا صار قبالتنا مباشرةً زالت الرائحة فجأة، وهنالك قال لي موروريا ضاحكاً:

ما رأيك يا شوكن لو تركت أغنامنا تسرح مع أغنامك على نفس العشب؟

والتفت مشيراً إلى تلك النعجة، وحاول أن يجذبها قليلاً، لكنها تصلبت بأطرافها جميعاً، بل أخذت تتراجع بعناد.

قال له لي دونغتساي: النعجة حرون، كلما جذبتها عنوة تراجعت

بإصرار، إذا لم تكن تصدقني أطلقها وشأنها وسوف تذهب من تلقاء نفسها وتختلط بأغنامنا.

وفعلا فكّ لها مورويا قيدها، فتقدمت شاته الحلوب بشيء من الوجل إلى قطعاننا التي استقبلتها في غير قليل من النفور، فاعتذرت نعجة السيد مورويا عن الفضول، وانطلقت تنتقي من بين الأعشاب زهرات النوار بلونها الأزرق السماوي.

أفضْتُ في مظاهر الاحترام البالغ للسيد مورويا، لكنه كان مثل طفل مشاكس مثير للقرف والغيظ، فلم يكن يكف عن استفزازنا بشتى الطرق، يشد هذا من أذنه ويضرب ذاك ببعض ما في يده، ويتحسس فلاناً في بعض جسده، فصحت فيه غاضباً: إلى هذا الحدّ، وكفى مضايقة.

جاء السيد مورويا في اليوم التالي ليرعى قطعانه معنا، وأخذ يحاول استثارة غضب الجميع مثلما فعل في المرة الفائتة، فلم نطقْ صبراً، وطوقناه جميعاً نشده من ذراعه ونجذبه من بنطاله حتى أقعدناه على الحشائش، وهنالك اقترح علينا كبيرنا لي دونغتساي أن نلعب به (الكبير رأس الخيار)، فوافقناه في صيحة واحدة لم يتخلف عنها أحد، فخلعنا له بنطاله وأخذنا ندخل رأسه الأشيب الكبير في حجره الواسع، ولو أنه كان أضيق كثيراً مما ألفناه في البنطال الصيني؛ فشق علينا إدخال رأسه في الحجر كاملاً، لكنا بذلنا غاية الجهد حتى أنفذنا رأسه داخله، فصار المسكين يتقلّب على الأرض وهو يلهث بكل ما وسعه، ونحن إلى جانبه نصفق ضاحكين، ثم قام لي دونغتساي وتناول الأنشوطة التي نهشّ بها على القطعان فانهال

بها ضرباً على مؤخرة موررويا، فكان صراخه المكتوم يصدر من بين ثنايا نسيج البنطال المحيط برأسه، وعلى إثر إحدى تلك الضربات العفوية تهتّك النسيج عند وصلة الحِجْر فبرز منه منخار أحمر فتقلّبنا على أقفيتنا من الضحك، حتى كدنا نتغوّط دون أن ندري أو ينساب البول بين أرجلنا ونحن ذاهلون، ثم واتتني فكرة جديدة كل الجدة وهي أن أقتطف غصناً يابساً مدبباً ثم أَخِزَ به الشعيرات المحتشدة في فتحة الأنف المحمرّ، وإذا الأنف القاني يتشنج ويعطس عطسات متوالية لينشق الحجر كله ويخرج رأس موررويا من مزنقه وقد احمرت وجنتاه وغامت العين في طوفان دموع.

تصادف مرور أبي مع مشهد من واقعة المرعى، فشحب لونه شحوب من فارقته الروح. يا بهائم.. ياً أولاد الجهلة الأغبياء. انطلق يسبنا وقد انحنى يخلّص رأس موررويا المليء بالحكمة من حجر البنطال، وأخذ يتوعدنا ويستقصي عن المحرض على تلك الفعلة الشنيعة، وكان موررويا آنذاك ممدداً بطوله على العشب المطروح في المرعى العريض، ساكناً سكون الأموات، ثم لاحظت أن وجهه المحتقن بالدماء جعل يستعيد لون بشرته البيضاء الفاتحة شيئاً فشيئاً، بينما هدأت أنفاسه للغاية، حتى ظننت أنه لفظ آخرها تواً.

أخذ أبي بأذني، فثناها آمراً إياي أن أكشف له عن رأس المصائب، فلم أقر بشيء، فوضع ركبته في بطني يريد أن يبقرها، فصمدت للزجر و لم أنثن، وبينما نحن على هذا وإذ بالسيِّد موررويا ينهض واقفاً وينحّي والدي

عنّي، يقول له ضاحكاً: المسألة لا تستحق يا عم ليو.. ذلك كان ضحكاً وتهريجاً فلا تشغل بالك كثيراً.

أطلقني أبي قائلاً: إياكم أن تُغضبوا السيد موروويا، يكفي هذا الرجل أنه جاء من آخر الدنيا لينشر كلمة الرب بيننا، فتدوم لنا نعمة الأرض ومحصولها ويزداد الخير في بيوتنا، فكيف تهزؤون به، وكيف تطاوعكم أنفسكم على امتهانه بمساخر ألعابكم الدنيئة؟!

قال السيد موروويا: أنت لا تعرف الموضوع من أساسه يا عم ليو، وبالمناسبة، فلعبة (الكبير ورأس الخيار) لطيفة جداً، ولحسن حظي فقد أتيح لي أثناء هذه اللعبة منذ لحظاتٍ أن أرى الرب بعيني.

من وقتئذ دارت كلمة السيد موروويا في أنحاء القرية، حتى صار الرعاع والفقراء يتضاحكون فيما بينهم ويقولون: إذا كان الواحد منا يستطيع أن يرى الرب إلهه أثناء لعبة (الكبير رأس خيار) فما معنى ذلك بالضبط.. هه؟ شوفوا أنتم المعنى كيف يكون! وتنطلق الضحكات في أفواه كل الحاضرين بغير استثناء.

ولعل السيد موروويا لم يؤد دوره كمبشر بدرجة معقولة من النجاح، وكم قيل إنه لدى وصوله إلى القرية كان دؤوباً ومخلصاً في نشر الموعظة بين الناس، لكن حماسه تضاءل مع الأيام حتى لم يعد يقوم برسالته على الوجه الأكمل. صحيح أن الفضل في تأسيس مدرسة ماري يعود إليه، وهو ما كان يعد أعظم إنجازاته على الإطلاق، لكنه الإنجاز الذي سرعان ما تحطم وانهار بعد الوفاة المفاجئة للمعلم تشن، ثم إنه لم يحاول أن

يسعى في استقدام مدرس آخر غيره، وبقي يقضي سحابة نهاره معنا نحن الأطفال الصغار، مما أتاح له أن يتعرف على مشاعرنا نحوه عبر الكثير من فترات اللهو الساذجة، بل إن علاقة طيبة نشأت أيضاً بين نعجته الحلوب ذكر الضأن القابع في بيتنا، وكان أن وثب عليها ذات يوم، وما زلنا من ساعتها لا ندري كيف ستكون النتيجة الطبيعية لمثل هذه العلاقة، إذ لا مفر من الانتظار عدة أشهر حتى نرى شكل الضأن الوليد ونحدد دور كل الأطراف، بدقة، في صياغة النتائج الحاسمة.

لم يكن في القرية كلها ذكر ضأن إلا وكانت له سابقة في امتطاء ظهر نعجة السيد موروويا، وفي كل مناسبة من هذا النوع كان الأطفال يدورون حول البهيمتين ويهتفون، بل حتى عندما كان الذكر ينزلق هابطاً من وثبته فقد كانت الصيحات تستمر دقيقتين أخريين، ويعلو صوت السيد موروويا قائلاً: عظيم.. عظيم جداً.. لكم أن تعرفوا أن كل هذا من أمر الخالق.

ربما كان السلوك الضأني قد ألهم السيد موروويا أشياء كثيرة، أو لعله أوحى إليه بأفكار واتجاهات ما كانت تخطر على البال! فقد حدث أن سيادته زار أبي وأهداه الغليون الفخم الذي كان يتدلى من فمه كثيراً، بالإضافة إلى علبة دخان من النوع الفاخر، وضعها جميعاً قدام أبي وقال له:

اسمع ياعم ليو.. يسعدني أن تقبل مني هذه الأشياء، كما أرجو أن تبحث لي عن زوجة.

سأله أبي دهشاً: أيها الأب الجليل.. ألم تقل حضرتك لنا إنه ليس لك أن ترتبط بامرأة أبداً؟

أجابه السيد قائلاً: لا.. انظر.. أريد أن أوضح لك أنه إذا كانت المخلوقات مثل الضأن وخلافه تتزاوج فيما بينها، فالإنسان أولى بهذا.. علماً بأن موضوع زواجي قد قررته الإرادة الالهية.

قال أبي: إذا كان الأمر كذلك، فليس لي أن أعصي إرادة السماء، لكن تُرى أي زوجة بالضبط يريد السيد أن يدخل بها؟ قل لي كيف تريد أن تكون الزوجة المطلوبة.

أشار السيد إلى أمي الجالسة لدى الفرن، المنهمكة في شغلها، وقال: أريد زوجة مثل امرأتك هذه.

كان واضحاً تماماً أن هذا الحوار بين أبي والسيد موررويا قد وصل إلى أسماع الوالدة؛ إذ لمحتُ وجهها قد اشتعل حمرة مفاجئة كحمرة القريدس ساعة أن رأيته فوق النار.

مشى السيد موررويا، وأقبل أبي على الغليون فملأه بالدخان وأشعل فيه النار، وتظاهر بجذب الأنفاس على نحو ما كان يفعل السيد وهو يدخن، وقال لجدِّي: الرجل هذا الأجنبي، من رأسه إلى قدميه خائن لرب السماوات.

قال جدي: لكن كيف يتزوج بامرأة من بلادنا، أليس في هذا استهتار بالطبائع الصينية؟ ثم كيف لامرأة صينية أن تعاشر أجنبياً؟ لا.. هذا موضوع يصعب جداً تحقيقه، واسمع، أقول لك بصراحة.. لا تورط نفسك في تزويجه، تفادياً للمشاكل ووجع الرأس!

الأمر الذي لم يكن متوقعاً بأي حال هو موقف جدتي المتسامح للغاية في هذا الشأن: ما لكم تضخمون الأمور وتعقدونها هكذا؟ ومن قال بأن هذا لم يحدث من قبل؟ بالعكس، فكم سمعنا عن مثل هذه الزيجات منذ زمان.. ألم يحدث هذا مع جاوتشون عندما عبرت من السور الكبير (سور الصين)، ومع الأميرة أون تشنغ.. ألم يكنّ نساء صينيات تزوجن من أجانب؟

قال جدي: هذا شيء وذاك شيء آخر مختلف.

قالت: دعك من هذا الكلام وأسرعْ بالبحث عن زوجة مناسبة له، فالزواج أفضل له من أن يبقى طوال اليوم يحدق بعينيه في الرائحة والغادية، ومن الدوران والتجوال في القرية طوال النهار.

قال لها جدي: ومن هذه التي سترضى بالزواج من أجنبي؟

أجابته قائلة: الذي يسعى سيصل لابد إلى نتيجة.

قالت أمي: ولماذا لا تزوجونه تلك المرأة المقيمة في شرق القرية؟ ثم إنها من أهالي الـ خوي وهم تقريباً يعتبرون من الأجانب.

فكّرت جدتي وقالت: فكرة معقولة جداً.. فعلاً، خصوصاً أنها أرملة تعيش وحدها مع طفلين، ويا حظها لو وجدت من يشاركها الحياة.

جرت محاولة في اليوم التالي لاستطلاع رأي المرأة التي من الـ خوي، وجاءت النتيجة بالقبول، فأسرع أبي ليتكلم مع موروويا، فإذا هو راض من كل قلبه، فقال له أبي: الشيء الوحيد المؤسف هو أن هذه المرأة بالذات

معها صغيران، أجابه موررويا: و لم لا؟ أنا على كل حال أحب الأطفال.

في اليوم التاسع من الشهر التاسع تلك السنة، شهدت القرية حفل زواج موررويا من امرأة الـخوي، وذهب أبي برفقة أصحابه لتهنئة موررويا في الكنيسة، وشربوا الأنخاب بهذه المناسبة، وكانت أمي قد اصطحبت صديقاتها وذهبن لتزيين العروس، وكان أن التقينا بطفلي المرأة، فإذا الكبير ولد في مثل عمر الفتيان من أمثالنا، وملامحه في معظمها قريبة الشبه بنا نحن الصينيين؛ هذا بالإضافة إلى طفلة لا يزيد عمرها عن الرابعة أو الخامسة على الأكثر، بشرتها تميل إلى السمرة، مع عينين واسعتين برموش طويلة، وقسمات أنضر وأجمل مما يميز الأطفال الصينيين العاديين.

كلاهما لم يختلط بجمعنا الحاشد. بالعكس، ظلا طوال الوقت منعزلين لا نرى لهما أثراً في حياتنا، وأقبل لي دونغتساي يسأل الولد الكبير:

– أين كنتم قبل أن تأتوا إلى هنا؟

هز الولد رأسه دون أن يرد بشيء.

عاد لي دونغتساي يسأل الولد عن اسمه، فأجاب بأنه لا يعرف، فسأله عن أبيه وموطنه، فأدار رأسه يمنة ويسرة قائلاً إنه، حقاً، لا يعرف.

حوار أخرق مثل هذا مع اثنين من البشر يجيبان على سؤال واحد بثلاثة ردود نافية، لابد سيدخل في عداد الطرائف. ثم إننا تحلّقنا عند البوابة ودخلنا الكنيسة، لنشاهد حفل زواج السيد موررويا بالمرأة التي من الـ خوي.

أُوقدت الشموع في مدخل قاعة الكنيسة، فتكسّرت أشعة الضوء على وجه مويان وقد تورّد بالحمرة إثر وقدة الخمر في جوفه، بينما كانت امرأته في كنف أمهاتنا اللاتي تكفلن بالمطلوب من ناحية استحمامها وتزيينها، حتى صارت كقطعة نحاس قديمة تم تلميعها بعناية شديدة، فانبثقت منها أطياف خفيفة دافئة.

فيما انقضى عام من الزمان، حلمت بأن السيد مورويا قد وافاه الأجل المحتوم.

مات مورويا، فدفنه آباؤنا في قطعة أرض فضاء أمام مبنى الكنيسة، حيث أقاموا له مقبرة ظاهرة وزرعوا قدامها شجرة صنوبر.

لم تنقض فترة طويلة حتى كانت المرأة التي من الـ خوي راقدة والدماء تسيل منها وتبلل ملاءة السرير، وفمها مفتوح يعاني سكرات الموت، ومن تحتها كانت كتلة لحم حمراء تصرخ باكية في تشنج وقد أحاطتها بركة من الدماء.

قضت المرأة نحبها، وقد تركت وراءها رضيعة يختلط في دمائها أثر من مورويا، وكان أنها جعلت تعتصر حلمات أمي حتى كتب لها البقاء على قيد الحياة، حال أن كانت أختي الأكبر من هذه الرضيعة بعام واحد فقط، قد استجابت لنداء السماء.

وجرى الاتفاق أن يتبنى آل أو باوتشان، الطفلَين الآخرين أولاد المرأة المتوفاة، غير أنهما لم يتحملا شظف العيش والمعاملة القاسية التي تعرضا

لها، فما كان منهما إلا أن هربا من البيت، دون أن يعرف أحد إلى أين انتهى بهما المطاف، وقالت امرأة العم أو باوتشان لكل من صادفها إن الطفلين نسيا الجميل وأنكرا اليد التي أطعمتهما وهربا بعد أن سرقا أثمن ما تملكه من أطباق وآنية معتبرة.

بلغ بي مطاف الأحلام عام ألف وتسعمئة واثنين وخمسين، وكنت حينذاك في الرابعة عشرة من عمري، في حين كانت اليتيمة ابنة الراحل موروويا من امرأته ذات الأصول التابعة لآل خوي، قد نشأت في كنف بيتنا، على صدر أمي، إلى أن بلغت السابعة، فأسميناها شو يي (ورقة الشجر)، بيد أن ملامحها راحت تُبرز صفات الدماء المختلطة على نحو غير عادي؛ ومثلاً، فرغم أني كنت أكبرها بسبع سنوات، فقد بدت بنيتها الفارعة قريبة جداً من مقاييس جسدي، حتى كان يمكن للرائي أن يخالني أكبر منها بعام واحد فقط، دون أي مبالغة. أما بخصوص أحوالي في تلك الفترة، فقد لاحظت أني، ورغم مرور مدة طويلة دون أن أتناول شيئاً من القريدس النيء، لم تفارقني حالة الأحلام الغريبة، وكنت قد مللت تلك المقدرة التي جلبت عليّ المشاق؛ ولذلك فقد قررت ألا أحكي لأحد حلماً، ولا حتى لأمي نفسها، فظن كثير من الناس أن الخوارق ذهبت عني، وبهتت في ذاكرة آخرين آثارُ زمن كان يستطيع فيه الولد ذو الرأس الضخم أن يرى في الأحلام رؤىً تتجسد على مرأىً ومسمع من الجميع، وبالمناسبة، فقد كان منظر رأسي بضخامته التي كادت تتوازى بكتلتها الهائلة مع باقي كتلة الجسد، يشد نحوي انتباه الناظرين، بينما كانت شو يي تتفرّد بشعرها البني الفاتح، في لون القسطل، وقصبة الأنف المرتفعة والعينين الغائرتين في

محجريهما؛ هذا و لم تكن شو يي في ذاك الوقت تعرف من تجارب الحياة الشيء الكثير، ولا حتى أصل حياتها هي نفسها، ومن ثم فقد عشنا وكبرنا معاً كشقائق، بكل حميمية ورابطة يمكن أن تجمع بين أخ وابنة أمه وأبيه.

ذات مساء خريفي، دقت بابنا الخشبي المتواضع شابة مليحة، بوجه مستدير تحيطه هالة من شعر مسترسل، قامتها تميل إلى القصر قليلاً، وانفتح الباب فدخلت، وتوقعت من أهلي: جدِّيَّ وأبي وأمي، الذين لم يتغير شيء في طبعهم منذ أمد بعيد، أن يستقبلوها جيمعاً بعين متسائلة متشككة، ولو أن بيتنا كان على مدى السنوات التي شهدت تغييرات وأحداث وزماناً غير الزمان، قد استقبل ضيوفاً كثيرين، أكثرهم من الكوادر الحزبية التابعة للحزب الشيوعي، ممن كانوا ينزلون علينا ضيوفاً، فنستقبلهم في البيوت ونجلسهم إلى الموائد، باعتبار أننا ننتمي إلى أحد تلك البيوت الموسرة. كنت لما تطلّعت إلى وجه تلك الزائرة قد بدت لي كأنها إحدى عضوات كوادر العمل؛ بينما كانت تتحدث بصوت رقيق ونبرات حريرية وهي تقدم نفسها إلينا:

عمي الكريم، سيدتي، الأخ الفاضل، السيدة المحترمة.. أقدّم لكم نفسي، فأنا معلمة الفصل الجديدة، لقبُ العائلة يوي، وهدفي من الزيارة القيام بحملةٍ لتشجيع منزلكم الكريم على إرسال أطفاله للتعلم في المدارس.

وعلى الفور رمقني جدي بنظرة ملؤها الشك، فكانت تلك تقريباً هي النظرة ذاتها التي راحت ترغمني على أن أعود بذاكرتي عدة سنوات إلى

الوراء، حال أن كنت قاصداً الدراسةَ في فصول السيد موررويا.

قال أبي: بيتنا رقيق الحال، ولا نملك تكاليف الدراسة.

قالت المعلمة يوي: المدرسة الآن تتبع الإدارة الحكومية، والدراسة بالمجان.

فعاد أبي يقول: وماذا يدرس طفل في أسرة ريفية، وما نفع الدراسة له؟

اقتربت المعلمة وربتت على رأسي وهي تقول: انظر يا رجل إلى ابنك هذا ورأسه الكبير، أقسم لك أن رأسه الضخم هذا سوف يجلعه من أذكى التلاميذ.

ثم راحت المعلمة يوي تتحسس أيضاً رأس شويا، ويبدو أن ما ورثته البنت من مزايا الهجنة أطار عقل المدرّسة الشابة، إذ نظرت إليها مفتتنة بملاحتها ثم مالت بجسدها فأحاطت وجه البنت بكفيها وجعلت تنظر ملياً في الوجه الصغير، وندت عنها صيحة إعجاب:

ياالجمالك، لم يكن يخطر ببالي أن مثل هذه المناطق الريفية البعيدة تكتنز طفلة حلوة بهذا المنظر.. اسمعوا ياحضرات.. يا عمتي ويا سيدي الكريم، وأنت يا جدي ويا جدتي، ليكن في علمكم أنكم إذا لم ترسلوا بهذين الصغيرين إلى الدراسة، فلن أنتقل من هنا خطوة واحدة.

وبالفعل فقد وقفت المعلمة مكانها وقد عقدت ذراعيها وراء ظهرها، وبقيت واقفة على حالها في باحة البيت، ففكر أبي سريعاً وقال لها:

حسناً، تفضلي إلى شغلك الآن، وسوف أرسل الأولاد إلى المدرسة، كما تقولين.

مضت المعلمة يوي، فقال جدي: اذهبا في غد إلى الدراسة، لكنّ الخوف أن يموت المعلم يوم بعد غد.

قال أبي: الوقت تغير الآن ياشيخنا العجوز، يقولون إن البلد تحررت، وأفكار الناس لم تعدْ هي الأفكار بعد أن تبدلت أشكال كثيرة في الحياة.

هز الجد رأسه وكأن الكلام ليس على هواه، ويبدو أنه لم يعد يجد عذراً يستبقينا به في البيت، خصوصاً وقد ماتت النعجتان، وما عاد يمكنه أن يثير مشكلة البحث عمن يسحب الدواب إلى المرعى.

في اليوم التالي قصدنا أنا وشويا المدرسة، وعلى ظهْرَينا حقيبتان صغيرتان، استغرقتا ليلة بأكملها كي يتحولا من قطعة قماش تخلفت عن بنطال قديم إلى حقائب مدرسية، و لم يكن موقع المدرسة قد تبدل إلى مكان آخر غير الكنيسة، وقد حفظت أقدامنا الطريق، والحقائب على ظهورنا خالية تماماً، وإذ بلغنا سد النهر وشرعنا النظر في الآفاق لم نجد المنظر المعتاد للجد وهو بشاطئ النهر يصطاد القشريات، بل رأينا كلباً يتطلع إلى سطح الماء المتعرج وهو ينبح بلا سبب مفهوم.

سألتني شويا: أخي.. هل تعرف ماذا سيعطوننا في المدرسة؟

قلت: لا أعرف.

– لكن جدتي قالت إنك قصدت إلى المدرسة من قبل.

– لا تصدقيها، كم تقول من أشياء، والهدف منها إغاظتي.

عند سد النهر صادفنا رجلاً أعرج يحمل خزانتيَ رصاص متدليتين من حزامه فوق إليتيه، فوق كل واحدة خزنة بالتساوي، الرجل أعرفه تماماً، واسمه وانغ الأعرج ويعمل خفير درك في منطقتنا، كنت رأيته ذات مرة يطلق الرصاص فيخلع غطاء الرأس عن الهامة، وكان ذا هيبة، حتى داخلتنا منه رعشة ونحن على مبعدة.

تفحّص ملامحنا مليّاً، قال: إلى أين تذهبون، وما تريدون في هذه الساعة؟

أجابته شويا وهي تتقافز في مشيتها: إلى المدرسة ذاهبون.

قال: وهل يستأهل المخلّطون من أمثالكم أن يقعدوا في فصول الدراسة؟

قالت شويا: المعلمة قالت لنا أن نذهب.

سخر هازئاً ومضى يتمايل.

قالت شويا: سمعت ما قال يا أخي؟.. لماذا قال عنا (المخلّطون)؟

قلت: أبوه هو المخلّط الحقير.

تجمع أطفال كثيرون لدى فناء الكنيسة، فدخلنا وسطهم، كانت صورة الرب قد انتزعت من فوق جدران الكنيسة وأُلقي بها في النهر الجاري، بينما كانت الشجرة التي تظلل قبر المعلم تشن قد غلُظت وتضخمت

أغصانها جداً وكان ثمة جرس كبير معلق في جذعها، وقيل فيما مضى إن الجرس التابع للكنيسة تم تعليقه هناك، ليدق ثلاث مرات في اليوم، كأن المقصود من ذلك تنبيه المتعبدين لئلّا يسهوا عن الله، لكن الناقوس توقف تماماً ونهائياً عن أن يطرق الأسماع، منذ أن وقع السيد موروويا في أيدينا، فلعبنا وإياه لعبة (الكبير رأس الخيار)، وجيء بحبل أبيض ليحل محل الآخر المربوط إلى الناقوس فتدلى منه وهاج مع الريح، وكان كثيراً ما يتقلّص مرفوعاً بثنياته إلى أعلى، فربطوه من طرفه السفلي بحجر في حجم قبضة الكف، فصار يتأرجح جيئة وذهاباً في كل دفقة ريح.

راحت المعلمة يوي تجذب الحبل المعلّق، فيدمدم الناقوس وتزلزل قلوبنا ونرتج مع الهدير المبرقش بصدأ السنين، ونضم أقدامنا معاً وتتخشب سيقاننا في وقفة الطابور، ونحن نرقب الضارب بالجرس.

وكان أن توجهت بنا إلى الفصول، حيث كانت أول حصة هي تدوين الأسماء، فقيل لنا: إذا نودي على اسم أحد منكم، فليقف مكانه ليُجبْ بأنه حاضر.

كان الأستاذ تشو يرتدي نظارة طبية، ويمشي بانحناءة واضحة في ظهره، بيد أنه كان يقيم بقرية مجاورة لنا، وكثيراً ماكنا نراه في مواسم الربيع مقعياً في أحد أركان السوق الشعبي يبيع اللافتات التي تُعرض للتعليق فوق الجدران، وقد شهد الناس له بالبراعة في كتابة اللوحات؛ لما امتاز به من موهبة بارعة في الخط الصيني.

دوّنت المعلمة كل الأسماء.

وأعطت كل واحد منا كتابين، كتاب (دروس اللغة)، وكتاب (الحساب)، كما وزعت علينا ألواح اردواز ثابتة داخل إطارات مربعة وثلاثة أقلام حجرية.

درّستنا المعلمة يوي الدرس الأول، وكان نصه: أنا ابن الصين الجديدة، أنا أحب الحزب الشيوعي الصيني.

درَّسنا الأستاذ تشو الدرس الثاني، ونصّه: 1+1=2

قبيل وجبة الغداء، قالت المعلمة يوي: انتهى الدرس الآن، نواصل الدروس بعد الظهر مباشرة.

قمنا واقفين، كأننا أسهم مسننة وجاهزة للانطلاق، لكن المعلمة أشارت بكفها إلى أسفل، قائلة: اجلسوا.. اجلسوا، فجلسنا جميعاً. قالت: نحن القينا بالروح الذي يسكن الكنيسة في النهر، لكن علامة الصليب الحديدية القائمة فوق سطح المبنى، ما زالت موجودة في مكانها، كأنها تضغط على رؤوسنا، فمن منكم لديه القدرة على الوصول إليها زحفاً فيهدمها؟

لم ينطق أحد، قالت شويا: أقوم أنا وأصعد إليها.

قلت: شويا، لا تتظاهري بأنك تقدرين على ذلك.

قالت المعلمة وهي تبتسم: كل الأولاد في الفصل مذعورون، إلا فتاة صغيرة.

الملحوظة استثارت الذكور، فقاموا جماعات يريدون أن يصعدوا كلهم إلى السطح

تقول المعلمة: لا. انتهى الأمر، المهمة هذه ستقوم بها زميلتكم ليو شويا.

حال الوصول إلى الفناء، نادت المعلمة يوي على المدرس تشو، وأشارت له بأن يحضر السّلم الخشبي ويثبّته فيما بين إفريز غرفة الدرس والجانب الملاصق من حائط الحوش.

تسلّقت شويا السلم، ثم وثبت من رأسه إلى ما فوق الإفريز كقرد ضليع وانطلقت تجاه علامة الصليب، وأخذت أصيح بها: شويا.. انتبهي حذر السقوط! لكنها لم تنظر لي، بل مالت على قاعدة العلامة وأحاطتها بذراعيها وجعلت تجذبها بقوة وتهزها فلم تتحرك قيد أنملة، فصارت البنت تزعق: لا أستطيع زحزحتها يا أستاذة، فرفعت هذه رأسها عالياً وهي تضع كفها مستعرضاً فوق حاجبها تتقي شعاع الشمس، وتميل برأسها للوراء وهي تتطلع إلى أعلى، وتصيح بتلميذتها: انتظري قليلاً حتى نلقي إليك بفأس أو قدوم صغيرة. قالت للمعلم تشو أن يجري بسرعة ويبحث عن فأس، فمضى الشاب بظهره المحني، وبعد فترة عاد بوجه مضلّع بالأسى، يقول: لا فأس هناك ولا أي شيء، كل من يسمع بأن الفأس مطلوبة لهدم الصليب يمتنع عن إعارتها. ردّت عليه يوي: يا لنباهة عقلك.. ولماذا تخبرهم بأننا نهدم الصليب يا ذكي؟ رُح مرة أخرى استلف فأساً، وقل لهم إننا نريدها كي نهرس بها الحطب، وهنالك مضى المعلم تشو مرة أخرى، وقالت

شويا: يا معلمة.. أريد أن أبول. فأجابتها قائلة: لا تنزلي الآن فيصعبَ عليك الصعود ثانية.. اصبري قليلاً، وعندي فكرة.. اسمعوا يا أولاد، أديروا وجوهكم.. الآن ياشويا.. اقعدي وتبولي مكانك على السطح.. هيا اقعدي. قالت المعلمة يوي: ما لك يا ليو شوكن؟ لماذا لا تدير وجهك كالآخرين؟ قلت في أسىً: هي أختي. ضحكت معلمتي وقالت: معك حق، فلا داعي إذن أن تحول رأسك. من فوق السطح جاء صوت شويا: أخي، عد خطوة للوراء. فعدت، كما أمرتني، خطوة للوراء فإذا خيط مياه ساقط من خلال القرميد على حرف السطح، وقد ثارت سحابة غبار فوق بلاطات الإفريز، وللتو عاد المعلم تشن ذو القتب، بيدين خاليتين.. ماذا؟ ألم يعرك أحد فأسه؟ كذا قالت المعلمة يوي في سخط، فأجابها تشو: لا فائدة مهما حاولت، كل واحد أكلمه يقول لي إنها خطيئة لا تغتفر. ثارت يوي: كلام فارغ.. انزلي يا شويا من عندك، نؤجل هذا ليوم آخر، نقوم فيه بإزالة العلامة.

جاء الشتاء فجأة، كأنه بلمحة عين جاء، و لم تدعْ لي المدرسَة بمظاهر حياتها الجافة سوى الشعور بالرتابة، وبالنسبة لـ شويا، وقتها، فلم تكن قد استطاعت أن تشكل رؤيتها الذاتية للمسائل والأشياء، فكانت تتبع خطاي، ترى لنفسها مثل ما أرى؛ ومثلاً عندما انتابني الشعور بالملل إزاء الدراسة، وعبّرت عن ذلك مراراً، كانت هي الآخرى تقطّب جبينها قائلة: وأنا أيضاً يا أخي، أشعر بالضجر حتى الموت، كذلك كان أولاد كبار مثل ليباو، ولي جانكوي، ممن قاربوا العشرين من عمرهم، ثم إذا هم تلاميذ في الصف الأول معنا، يجلسون على نفس المقاعد، ثم ما إن يبدأ الدرس

حتى يميلوا بأجسادهم قليلاً، ويضرطوا بصوت عالٍ، فتفوح رائحة منتنة، يدوخ منها رأسي وتنقلب معدتي ويساورني غثيانٌ.. وأنا كذلك يا أخي الأكبر.. يميتني هذا القرف موتاً.. فما رأيك أن نخبر أهلنا أنّا لن نذهب للمدرسة ثانية؟ كان الكلام، وقتئذ، قد شب ونما على أطراف لسانها، فصارت ذات حديث رائق وثرثرة وحكايات وأخذ وردّ، مهما كان موضوع الحديث، فما إن تنفتح بوبات الكلام حتىً تنطلق وتتشعب وتذهب في الحكي كل مذهب، دون أن يدانيها التكرار أو تتلبث بإعادة القول دوائر على بدء، ولم أكن قد انتبهت من قبل إلى بهجة الاستماع إلى فتيات يتحدثن بعذوبة ودلال، فيفيض الصوت لذة تغشى الأسماع؛ وكنت قد هززت رأسي رافضاً، بحسم، ثرثرتها الفارغة، قائلاً لها إنه ليس من العقل أن نطلب من أهلنا إعفاءنا من الدراسة؛ وذلك بالنظر إلى ما قامت به المعلمة يوي من امتداح مواهبنا في حضرة عائلتنا وعلى مسمع منهم، حتى إنها صنعت منا نحن الاثنين علامات مجد وفرح رسخت في أعماق أبوينا، علامات كأنها نصب تذكارية موقوفة على وعد جميل تأتي به الأيام، وهذه العلامات الراسخة صارت معلقة بنا.. ملكاً لكلينا.. لك واحدة منها ولي أنا أيضاً، والأبوان أمنيتهما معلقة بما نحققه في دراستنا، وبعد المدرسة الأولى تأتي المرحلة المتوسطة، ثم الجامعة فالترقي الاجتماعي والوظيفي.. شرف الجدود ومجد المستقبل الباهر.

مجد فساء الكلب! كذا قال الصوت المهجن العذب في غيظ ومرارة. حتى هذه الطريقة في السب كانت تقلدني فيها وتأخذها من لساني، لكني انتقدتها ساخطاً:

– كيف لفتاة مثلك أن تجرؤ على مثل هذا اللفظ!

صمدت للنقد دون أن تتزحزح عن موقفها:

– الأولاد من حقهم أن يقولوا كيفما شاءوا.. فلماذا تُكَمُّ البنات؟

ردت مستنكرة وبحجة مناظرة فانحبس لساني.

بعد لحظات، لاطفتني قائلة: إياك أن تزعل.. ما رأيك لو لعبت (الشقلبة).. انظر.. سأقفز وأنت تنظر لي.

لم تنتظر لتعرف إن كنت على استعداد للتفرّج عليها أم لا، وأسرعت لتعلّق حقيبتها في عنقي وشدت السير الجلدي جيداً حول وسطها، وعلى سطح أرض مستوية لدى سدّ النهر، جعلت تدور دورات كاملة وهي تميل بجسدها ميلاً خفيفاً بمنتهى الرشاقة والمهارة، كطائر لا تعوزه رشاقة القوام ولا مرونة الحركة، ولئن كنت قد نشأت في بيت واحد معها، حتى كبرنا معاً، فلم أكن أعرف متى أو أين ومع من استطاعت أن تكتسب هذه المقدرة الجسدية البارعة، وظللت أتفرج مأخوذاً بتعاقب دورانها، وكلما رأيت شقلبتها وقد جعلت رأسها يلامس الأرض والقدمين تتناوبان الاتجاه المعاكس، فتنزاح ياقة السترة القطنية تجاه العنق متدلية جهة الأرض، ثم تعود وقد اعتدل الجسد لتستر ما تعرّى خفيفاً مما يلي السترة، فقلت في نفسي هي فتاة مهجّنة ومليحة تعجب الرائي وتقيم محبتها في القلوب.

اعتدلتْ واقفة وهي تلهث وتمسح ما علق بكفيها من تراب الطريق في جانبي السترة، وكان الوجه الأبيض مشبعاً بحمرة الدماء المتدفقة

في وجنتين كحبتي خوخ بخدٍّ ناعم وطراوة مخملية؛ وقد احتشد رشْح عرقٍ بللوري صافٍ فوق عرنين أنفها الشامخ، ثم هدأت منها الأنفاس المتدافعة، وابتسمتْ فبدت أسنانها نقية نقاء لا يشوبه كدر.

متى وأين تدربتِ على تلك الحركات حتى صارت لك كل هذه المهارة؟ سألتها مستفسراً.

هلّا أعفيتني من غضبتك إذا صارحتك؟ وهل تسمح لي بأن أسب فساء الكلاب؟ رمقتني متخابثة.

قلت: لا عليك إذا سببت الكلاب.. أنت وشأنك.. اشتمي ما تشائين، ملعون فساء كل كلب ودابة جرباء.

صاحت بأعلى صوتها تسب وتزيد سباً كل عضو في جسد كلب وكل فتحة تصريف كائنة في ثنايا تكوينه، ثم اشتقّت من هذه الكتلة الكلبية المنحطة صفات ونعوتاً ألحقتها متتالية مترابطة لا تنفصم عراها باسم واحد في المبتدأ، هو المدرسة ولا شيء سواها.

انهدّت قواها بنهاية السب المقذع، فصرنا نضحك ونكاد من قهقهاتنا نسقط من طولنا.

قلت: شويا، رأيت في منام الليل أن أتان العم ليو سيشان ستلد بغلاً.. والبغل جميل.

– لكن أحلامك لم تعد تحمل نبوءات.. مثلما كان.

– لقد خدعتهم جميعاً.. فما زالت أحلامي تنبئ بالكثير، فاحفظي السرّ.

هزت رأسها بالفهم الجليل.

قررنا أن نهرب من المدرسة معاً؛ لنشهد واقعة ميلاد البغل من رحم أتان العم ليو سيشان

بيت ليو سيشان هذا يقع في أقصى الطرف الجنوبي من القرية، فما إن تخرج من بيته حتى تجد قدامك خلاء بامتداد البرية، وحسب ما وعته الذاكرة من الحلم فقد مشينا حتى عثرنا على بيت العم ليو بغير أدنى تعب، وبالطبع فقد كان ثمة أشخاص كثيرون في باحة الدار يثرثرون، ثم إنهم تحلّقوا في جمع دائري، فأمسكتُ بيد شويا فنفذنا إلى داخل الحلقة بعد مزاحمة سيقان الواقفين، وبدت لنا الأتان العجوز السوداء مستلقية على جانبها، وقد فرشوا لها من خلفها كومة حشائش جافة، بللتها قطرات من الدم.

على ماذا تتزاحمون يا أولاد؟ انهالت كف فوق رأسي.

فتحت الأتان السوداء عينيها على اتساعهما ونصبت أذنيها عالياً ثم خفضتهما ثانية، وجعلت تكرر تلك الحركة مراراً، وصار العرق يسقط في عنق الأتان ويحيل لون الشعر إلى الزرقة التامة، وكانت بطنها تعلو وتهبط، وراح رجل أصلع يميل بجذعه عليها ويعتصر بطنها قليلاً.

لا يمكن يا أخانا، أن تضغط بقوة هكذا، فالأحسن أن تمسها برفق؛ هذا ما قاله شيخ عليم للرجل الأصلع وهو ينوّره.

قال أحد العجائز: حكْمُ الطبع واحدٌ بحذافيره سواء على الإنسان أو الحيوان، فهجين الحصان مع الحمير لا ينجو منه إلا واحد في العشرة، اجعلوا عقولكم في رأسكم.. فالحصان أكبر حجماً من الأتان، وإذ تلد هذه بغلاً، فإنه يتبع أمه في كل الأحوال، ولأجل هذا يقبل الناس على إخصاب الحمير من جنسها، أي لكل أتان ذكر يمتطيها؛ لأجل أن يأتي المولود بالطريقة الطبيعية والمعتادة، أما باستثناء أتان العم ليو، فلا أظن أن أتاناً أخرى يمكن أن تحمل بغلاً.

قال ليو سيشان: نحن نريدها أن تلد البغل بأي وسيلة، حتى لو ماتت أثناء الولادة، فلتذهب للجحيم هي وأمثالها، المهم أن يأتي البغل.

تعرّقت رأس الأصلع وابتلّ جلده من رشح مسامها، فقام معتدلاً وقال: الألم يكاد يمزق الأتان، وأرى أنها تحتضر، فابقروا بطنها حالاً واستخرجوا الوليد واسقوه ماء الأرز عوضاً له عن ضرع أمه.

قال الكهل الأريب: هذا كله تخريف وضرط كلام! منذ متى كانت تعيش البهائم التي تجيء من غير شق الولادة؟ منذ متى؟ وكم واحد منها عاش.. هه؟ شقُّ الولد هذا هو باب الجحيم بعينه. منه يعبر السلطان والأفعوان وابن الصعاليك.. فما بالك ببغل من بطن حمارة.. فضّ بالك من سقط الحوار هذا، وملّس على بطنها بشدة ولا تخف.

مال الأصلع بجذعه ثانية، وفي تردد بالغ مدّ كفين بأصابع غليظة كمثل مخلبي دببة وسرح بهما مسحاً وتدليكاً فوق البطن المنتفخة كقربة ضخمة.

مال الشيخ هو الآخر، ونظر ناحية مؤخرة الأتان النازفة دماً، وهز رأسه متسائلاً: هل عندكم زيت فول؟ اسقوها جينين كاملين (مقدار كيلوغرام) فإذا لم تنفع هذه الطريقة، فللأسف، لا أعرف لكم حلاً آخر غيرها، ومهما كانت الدواعي بعد ذلك، فإياكم أن تقربوها لحصان يهجنها، ولا لابن هجين يصرعها إذ ينزُو عليها، فقد أهزلها السن للغاية...

صبّت امرأة العم ليو سيشان طبقاً من زيت الفول ذي اللون الداكن بحمرة خفيفة، وانثنى عدة رجال ليرفعوا رأس الحمارة، فأدخلوا قمعاً حديدياً في فمها قسراً، فانفرجت شفتاها الكبيرتان تبينان عن أسنان صفراء متآكلة، وفي الحال انبعثت من بين الشدقين المفتوحين عن آخرهما رائحة عفنة، وجاء الشيخ بمغرفة ذات مقبض ألومنيوم، وأخذ يصب لها الزيت شيئاً فشيئاً حتى فاض وسال على جانبي الفم فلمع في شدقيها لزجاً كثيفاً.

تقاطرت الدموع من عيني امرأة العم ليو، وصارت تقول للبهيمة: هيا يا ابنتي. ابذلي جهداً أكثر. الصعب يهون بعد قليل.. فقط ابذلي غاية جهدك فتزول الشدة.. هذه ليست أول ولادة لك.

أشار الشيخ العليم إلى بطن الحمارة المنفوخ على آخره، وقال في استياء

بالغ: وهل يخفى عليك مقدار ضخامة الجنين المهجن بمجرد التطلع إلى هذا المنظر الذي أمامك؟

وربما كان بتأثير الزيت وما يحكى عن طاقته السحرية في حالات الوضع، أو لعلها توسلات امرأة العم ليو وما نتج عنها من استجابة فورية: فقد فوجئ الجميع بعد لحظة صمت قاسية كالموت، بجسد الدابة المنهك يتقلص فجأة والبطن المتورمة تتماوج كقلع الصاري الذي تناوشته الريح، ثم إذا بسائل أسود دافئ مختلط بدم مكتئب اللون، وقد أصبح باب الحياة أشبه ما يكون بزهرة الطان (بأوراقها العريضة المفلطحة) أوان تفتُّح أوراقها، ثم لم يلبث رأس بيضاوي أقرب إلى الاستطالة أن شق طريقه خارجاً، وفي الحال جعل يتقلص بباقي جسده حتى انفلت من الجسد المتشنج.

خرج المولود!

تهلل الجميع فرحاً، وماجوا صخباً في حين تشنج جسد الأتان وقد فارقتها الروح، وانكمشت البطن التي كانت مشدودة على آخرها.

لم يعبأ الشيخ الواقف بما تكوم على جسد البغل الوليد من مخاط، وراح يزيل ما علق منه بفمه وحلقه، ثم أخذ يكشط ما علق بحوافره الصغيرة من خلايا بيضاء لزجة، وطلب أن يأتوه بخرقة جافة، فمسح عن جسده وأزال أوضاره، وبعد دقائق كان هذا الصغير الذي أودى بحياة أمه يرتعش مستنداً إلى أقدامه الأربعة يحاول الوقوف، ثم خارت قواه فوقع فلم يلبث

أن أعاد الكرة فانتصب مكانه، وثبت على أطرافه تماماً، وأخيراً.. أخيراً مشى يترنح، فكانت تلك أول خطوة.

بينما نحن في تلك العجيبة، إذا بامرأة كبيرة الأرداف قد أقبلت لاهثة مقطوعة الأنفاس إلى بيت العم ليو، وما إن بلغت الفناء حتى سقطت من طولها فعرفتها على الفور، فهي امرأة السيد ماتسي شوان مساعد العمدة، كان الجميع يعرفونها في القرية، باعتبارها إحدى أولئك النسوة المتبجحات سليطات اللسان بذيئات الأخلاق، وقد شاع عنها أنها لا ترزق بأولاد لظروف كثيرة منها ما كان يتصل بطبيعة عملها أيام الفقر، وتردد في الانحاء كافة أنها كذبت على رجلها وأوهمته بأنها حملت، وصارت تقوم صباح كل يوم فتستند إلى الباب وتتكلف القيء، وبفضل ما انطلى على الزوج من آثار تلك الخدعة، فقد استمتعت بصنوف وألوان من أزكى الطعام والفطائر الشهية، وبعد عدة أشهر راحت تصب قطرات من سائل أحمر اللون في بالوعة المبولة، بعد أن سلخت فارة ميتة وقطعت ذيلها وألقت بها في دورة المياه وصاحت بالسيد ماتسي أنها أُسقط حملها، و لم تنطل الحيلة على الرجل وتكشفت له ألاعيبها، فعلّقها من قدميها وأثخنها ضرباً حتى تشقق جلدها عنها وتهرّأ لحمها.

والمرأة ذات الردفين الرجراجين، ما إن دخلت الباحة حتى صاحت بملء صوتها، تقول إنها تريد الكيس الشفاف، والمقصود به كيس المشيمة الذي تخلف عن عملية ولادة البغل؛ ولما كان أهل بيت العم ليو متكدري الحال بسبب موت الحمارة، فلم يعبؤوا بالمرأة أم الردفين، فسألها الرجل الأصلع عما تريد أن تفعل بالمشيمة، فأجابته قائلة: يا سلام! كيس المشيمة

هذا له فائدة كبرى في علاج اضطرابات الدورة، وأنا أريد أن أتعافى من عدم انتظامها، لعل وعسى أن أرزق بمولود للرجل المسكين.

قال الأصلع: اسمعي الكلام.. مشيمة البغل لن ترزقك بشيء طول حياتك.

ثارت المرأة فجأة، وأنشبت كفها في رأسه فتفرعت فيها أربعة خيوط من الدم النازف، وساد الهرج والمرج في أرجاء الحوش، وإذ حضرنا، أنا وشويا، منظر البغل الوليد الأعجف يتقوّى شيئاً بعد شيء ويستند واقفاً على أقدامه المتشنجة، فقد انسللنا خارجين من حوش منزل العم ليو وقصدنا إلى المدرسة راجعين.

ورغم أني حلمت بواقعة انكشاف المستور قبل حدوثها بيوم ونصف اليوم، فقد مضيت مع شويا في خطتنا حرفاً بحرف، كما تجلّت لي في المنام، ذلك أننا سرقنا الشبكة التي كان يصطاد بها جدي القريدس وجرينا إلى شط النهر في موضع الصيد المعتاد، وفردنا الشبكة لالتقاط الصيد، فصارت لعبة إلقاء الشبكة في الماء وخروجها مليئة بما اقتنصت من طعام البحور، لذة صافية ألهتنا عن فصول الدرس المقررة في النصف الثاني من النهار، أو ربما كنا قد أزمعنا الهرب من الدرس في ابتداء الأمر.

تعكّرت المياه، لأن المطر كان قد سقط في مساء ليلة اليوم الأول، وارتفع منسوب المياه حتى بلغ مقدار ثلث المتر، حتى غطى الموضع الذي اعتدنا غسل وجوهنا عنده، لدى الصخرة السوداء، و لم يعد يظهر مكانه سوى كتل طافية من زبد الموج تدل على موقعه.

اتخذت وضعاً أحاكي به هيئة جدي، فمددت مرفقيَّ على استطالتهما وأنا قابض على العصا الخشبية، ثم رفعتها بكل قوتي وصوبتها إلى الخلف بميل خفيف إلى اليسار، وعندئذ ألقيت بها عكس اتجاه التيار، عامداً أن أغوص بها في قلب الماء، وأنا أتحرك بطيئاً جداً للخلف، وصارت المياه المعكّرة تفور وتتقلب فيما وراء الشبكة، وكنت أحوم بها وأسحبها مليئة عيونها بأغشية من ماء، فألحظ في قاعها عشرات من القريدس الشفاف يتقافز فيلتئم ويشتمله لون داكن، والبهجة في قلبي تدور دوائر فرح راقص، وشويا ذاهلة وطافرة بالمرح تقول: بهذا القدر.. اصطدت كل هذا!

قبضت بيدي على أول الصيد، وحشوت به حلقي، وأعطيت الباقي لـ شويا، فلم تحد عن مثالي، فألقمت جوفها الحفنة التي نفحتُها إياها.

كانت ملامحنا نثار عبث كالحلم، لم نسائل أنفسنا عن شيء، حتى شويا كانت تزدرد القريدس كأنها سكرى من لذة الشعور بما يتقافز، حياً، في حلقها.

وكأن الطعم اللذيذ في جوفي قد ضاعف من طاقتي الجسمانية، فلم أكف عن الصيد، وفي كل مرة تبرز الشبكة من الماء، تتهلل شويا مرحاً، لكنها لم تكن لتجاريني في التهام طعام البحور، وبعد أن سرى في دمها طعم القشريات وامتصت خلاياها عصارته، إذا بها تكتسب طاقة نمو هائلة، أمكن ملاحظتها بالعين المجردة، بينما لم أكن أكتسب أي مقدار من النمو، سوى ما انصبّ في حجم رأسي، ليس غير.

ظهور المعلم مالاو بقامته الطويلة وقوامه النحيف ووجهه المليء ببثرات الشباب لم يثر فينا الفزع؛ لأننا كنا قد قررنا كل شيء ولامفر، ثم إن لوائح المدرسة تم توسيع نطاقها لتشمل بنوداً كثيرة، في حين تولت المعلمة يوي إدارة المدرسة، وأمدتها إدارة الحكم المحلي باثنين من المدرسين، أحدهما هو ذلك الـ مالاو المذكور أنفاً.

نزل من سد النهر في منتهى الحذر، واقترب حتى صار قبالتنا بالضبط، وابتسم ابتسامة باردة بفم مُعوجّ، وقد عبق جسده برائحة نوع من الكولونيا النفاذة الخانقة، أما قميصه الأبيض فكان خلاصة بياضٍ ناصع، هذا بالاضافة إلى شعره الكثيف اللامع بالدهان، حتى صار يبرق ألقاً في الأعالي.

في لمح البصر كانت عقلات أصابعه المثنية تنقر رأسي بقوة كمثل نويات شجرة خوخ صلبةٍ صلابةَ الحديد، بلغ من طقطقتها فوق دماغي أني شعرت في الحال بصداعٍ دوارُه دوارُ عش نحل طنّان، وسرعان ما توالت في مخيلتي مناظر عجيبةٍ من مشاهد نادرة المثال، تكاد لا توصف من غرابتها، كأن كنزاً من لوحات شتى انفتحت لي أطواقه، فتدفقت طياته، طبقات فوق طبقات ثم ارتجّت أذني بصناج حاد غشي منه على سمعي.

كمثل ذئبة برية، اندفعت شويا نحو مالاو فاصطدمت رأسها بفخذه، فتراجع رغماً عنه عدة خطوات، فإذا بحذائه الرياضي الأبيض الناصع ينغرس في مستنقع صغير ويغوص فيه ويعلق به شوب قاذورات، فلما

تحقق المعلم مما وقع لحذائه رفع رأسه بوجه أوقده الغضب نيراناً، فاشتعلت بثرات الشباب البيضاء في بشرته بحمرة قانية، وما هي إلا ركلة قدم واحدة أطاحت بـ شويا بعيداً، وبالقدم الثانية ركلني فتشقلبت، ولم تنج منه شبكة جدي، إذ هوى عليها فحطمها، وأمرني أن أحمل الشبكة المحطمة وأتوجه بها إلى المدرسة، ومن ثم أُحبطت محاولة الهرب على قدم مالاو الطويلة، سريعة التصرف في الملمّات.

أصدر مالاو أمره بأن نقف أنا وشويا تحت جرس المدرسة على سبيل العقاب، ووضعت الشبكة المسكينة على الأرض مستوية تحت ناظرينا، والتم حولنا التلاميذ يتأملوننا وقت الراحة بين الدروس، فشعرت بأن كرامتي انتهكت، بينما ألقت شويا على الزملاء وجهاً متجهماً جهامة عفاريت الغضب، وبصوت خفيض أطلقت فيه أردأ الصفات، وخاضت في سيرته، قالت:

أم الـ مالاو هذا عبارة عن حمارة سوداء، وولدت بغلاً.

انتهى اليوم الدراسي، ولم يُعفِنا المعلم مالاو من العقاب، بل جعل يدور حولنا وهو عاقدٌ كفيه خلف ظهره، يحوم حولنا وبسخرية مريرة يضحك.

في دخول المساء من أركان الدنيا الأربعة، عادت المديرة يوي من مشوارها الخارجي، فاستفسرت عما حدث بالضبط، وألقت باللوم علينا معتبرة أن العقاب انتهى عند هذا الحد، وأنه لابد من العودة الآن إلى البيت لنأكل ونستريح.

هذه الواقعة التي قد تبدو لي الآن مجرد حدث عارض يتواشج بأيام هائنة بعيدة، ارتبطت للغرابة بحادث كبير يصعب نسيانه فيما مضى من حياتي الدراسية الأولى.. لماذا.. ما السبب تحديداً؟ مهما حاولت أن أغوص في دفائن الأفكار وأعماق الرؤى بحثاً عن توضيح، فسيبقى هذا الأمر أبعد من أن يملك سمة أدبية، أو أن يُدرج ضمن تفاصيل قصة قصيرة، وإذ يصل بي التفكير إلى هذا الحد تنهار ثقتي الأدبية الإبداعية، حتى إنني أتردد في مواصلة كتابتي هذه التي يقال بأنها رواية قصيرة، بيد أنه ينبغي عليّ أن أخالف إرادتي وأمضي في الكتابة، حتى لو كانت الحوادث التالية أكثر تشظياً وانفراطاً وافتقاداً للتشويق.

أول هذه الحوادث أن المعلم مالاو والمديرة يوي صارا زوجين، ثم لم يلبثا أن شهدا بدء عصر "القفزة الكبرى للأمام"، و"صهر الحديد"، و"الانطلاق نحو الفضاء" وذلك في العام ألف وتسعمئة وثمانية وخمسين؛ وأصبحنا نتبع خطى المعلم في زيارات إلى محطة التنجيم بقرية ماكيجوانغ، وبيد كل منا قدوم لتقطيع الصخر، وكم ذهبنا إلى السهول الخريفية الواسعة نتفرج على المحاصيل الوافرة ملء المزارع والحقول، ولم تكن أعداد الحصادين في وفرة الزرع، فكانت أعواد الذرة مطروحة تذوي في فتور، بينما نبتت في هدباتها الحمراء براعم كثيفة الاخضرار، أما نوار القطن فكان خمائل شتى منها ما تساقطت به الأوراق أكواماً تقبع في الانتظار، وفوق رؤوسنا أسراب إوز بري تحلق صوب الجنوب، وفي الدروب الضيقة بين الغيطان جماعات من الناس مجهولي الهوية، والكل ساع جيئة وذهاباً. وجوههم متربة ومجهدة، وتحت أقدامهم تثور أطنان الغبار. جموع من الناس تروح

وتغدو ولا أحد يرفع بيده تحية أو سلاماً لهذا أو ذاك، ولا من يسأل زميله إلى أين يمضي.

كان المعلم مالاو يقودنا، نحن تلاميذ الصف السادس، خلال الزيارات، فبقينا نتبعه يوماً بأكمله، وقبيل المساء أشار ناحية قرية يلفها الظلام قائلاً: هي ذي ضيعة ماكيجوان قدامنا، فتطلعنا إليها وسحابات داكنة تطويها، وبين حين وآخَر تنطلق شرارات لامعة بعنفوان يقهر جنبات الظلمة الحالكة، ثم انطلقت صفارة بخارية لقاطرة سوداء مرقت أمامنا بقلب جامد، فارتجفت الأرض من تحتي.

عبرنا قضبان السكة الحديدية وأقبلنا على رصيف مهجور لشحن البضائع، وكان ثمة أحجار يميل لونها إلى البني المحترق مكوّمة في أحد الأركان، فأشار إليها المعلم مالاو وقال بمنتهى الانفعال: هذه هي الخامات المعدنية.. أيها الرفاق!

أمرنا بالجلوس ريثما يذهب باحثا عن أحد القادة المعاونين، وراح ينظر من خلال الثقوب الكثيرة في جدران الغرف الخربة، دون أثر لأحد، فلما نال منا الملل، قعدنا فوق كتلة الخامة المعدنية، فأوجعت مؤخرتي وانتقلت إلى الأرض المتربة، وكان الليل قد أرخى سدوله، فلمعت الشرارات المنطلقة من وراء الدخان الكثيف ببريق أشد وهجاً، وفيما وراء ساحة الرصيف كنا نرى ألسنة من اللهب تبزغ في بعض الزوايا، وقيل إنها ذؤابات أفران الصهر العالي، لكن الجوع لم يدعْ لأحد صبراً، ولم يكن المعلم قد عاد حتى الساعة، فوقف تلميذ ضخم الجسد وانهال بالسب المقذع، وقال:

لنذهب ونرَ أين ذهب المعلم، وأي داهية أخذته؛ لأنه لابد أن يتصرف ويأتي بطعام للرفاق الجوعى، فقام معه عدد من البدناء أمثاله، وقالوا إنهم يمشون معه، الخطوة وراء الكعب، فمرقوا خلفه وذهبوا، و لم يظهر لهم أثر بعدها، وصارت أصوات ارتطام الحديد ببعضه بعضاً تهدر في جنبات الضيعة بين وقت وآخر، وقد عبق الجو برائحة القش المحترق، وبكت الفتيات فزجرتهن وقلت الساعة يأتي الفرج، وكنت وقتذاك ابن عشرين سنة، صحيح أني لم أكن طويل القامة، لكن بنيتي الجسمانية اكتملت بعنفوان الشباب؛ كما أن شويا بسنيِّ عمرها البالغة ثلاثة عشر عاماً كانت قامتها تتوثب إلى ما فوق المتر ونصف المتر، بقوام لطيف أتاح لها المشاركة في أنشطة التمثيل بالفصل، فوقفت ذات مرة على المسرح لتمثل دور فتاة روسية تشارك بمرح وسعادة في الكولخوز، وهي المزارع الجماعية في قرى الاتحاد السوفيتي، لكنها أيضاً كانت تدرك مأساتها، فينتابها الشعور بالخزي، فلطالما ظلت نشأتها، على نحو ما بدا لها، كجلمود من صلب ترزح تحته روحها وأنفاسها، يكتم في جوفها صوتَها العذب، فيشق عليها أن تغني أو أن تنشد بيتاً من الشعر؛ مما يعني أن فكرة المنبت الشريف والأصل الماجد ظلت قائمة حتى وقتئذ، و لم تندثر تماماً. فما كان منها إلا أن جلست، بملامح تنضح قلقاً وحيرة فوق سطح الأرض المتربة، وبريقُ اللهب البعيد يتخايل فوق وجهها الغائم في سحابات غبار، وقد جفت في غضونه حبات عرق.

ساعة أن انتصف الليل، تقريباً، ومع هبوب رياح خريفية باردة جمّدت منها أطرافنا، أقبل علينا المعلم تشو ذو القتب متسللاً، فسألناه:

ألم تكن موكلاً بمراقبة بوابة المدرسة يا أستاذ تشن؟ فأشاح بيده آمراً بالسكوت، وجعل يزيح طبقات الصخر المعدني الخام كأنه يبحث عن شيء مفقود، و لم ندر إن كان عثر على ضالته، بيد أنه رفع قتبه واعتدل ماشياً، لكنه ما إن غاب في الأفق حتى جاءنا المعلم تشن شنغ ابن العطاء الرباني الأقدس، وقد علق الطمي الأصفر بقميصه القديم، كأنه اخترق اللحد وقام يسعى بين الأحياء، اختصني بالود وسألني عما آل إليه مصير السيد موروريا، فقلت مات. والبنت هذه –وأشرت تجاه شويا– هي ابنته لحاً، أي ابنته من صلبه، فانفعل المعلم وثارت نفسه وانتابته نوبة سعال، فتقيّأ دماً، وصار وجهه كمثل صحيفة من نحاس. قال: اصدقيني القول يا ابنتي وانطقي بالحق.. أمازالت نعجة أبيك للوقت باقية؟ فأشاحت عنه البنت شويا و لم تعره انتباهاً، قلت: امض الآن، فالوقت لا يسعفك، وأستعيذك من أن تقلق بالنا وتقلّب علينا المواجع، فمشى في الحال. و لم يلبث مالاو أن عاد، والأسى يقطر من ملامحه، وهو يغمغم بقولٍ خفيٍّ لا يستبين مقصده، وقد زالت عنه رهبة الطلعة التي عهدناها في محياه، ثم إنه أخرج من حقيبته حفنات من البطاطا الحمراء وقد علق بها التراب والطين، وناول كل واحد يداً بيد، فلم نشأ أن نزيل عنها وضرها، فالتقمناها وضرّسناها بأسنان لها صرير، فنظرت إلى شويا فإذا أسنانها البيضاء تلمع كالفضة في وميض واهن من نور.

بادرنا إلى العمل في اليوم التالي مباشرة: المهمة كانت عبارة عن تكسير أحجار الخامات المعدنية، بالقدائم والشواكيش، حتى يتحول الجلمود البنّي إلى حصوات مقدارُ حجم الواحدة منها لا يزيد على نواة الخوخ،

لكن الأحجار كانت من الصلابة بحيث شطفت رأس القدوم وقصفت منه مواضع بدت كندوب غائرة في الكتلة الضاربة منه، وبنهاية الفترة الصباحية لم تكن تكفي حصيلة العمل من الحصى المجروش لملء سلة كبيرة، فلم تأت الظهيرة إلا وكان وزملاؤنا الذين تركونا بالأمس قد عادوا يحملون أحد الجرادل المعدنية بعد أن علقوه متدلياً من عامود خشبي متين جيء به من غصن صفصافة، وإذا الجردل مليء بفطائر ساخنة، يتصاعد منها البخار، فتقافز الجميع فرحاً، وأشرق وجه المعلم مالاو بامتنان عظيم، وتزاحمت الايدي تقتنص وتتفادى، فما أشهى فطائر محشوة بالملفوف الصيني!

بينما نحن منهمكون في الأكل، إذا بشاب داكن البشرة يحمل بيده قضيب حديد مخروطاً بدوائر حلزونية قد أقبل علينا وهو متأجّج غضباً، وتساءل متوعداً عمن جاء بنا إلى هنا، فأجابه المعلم مالاو بما يفي بالغرض، فاتضح أن ذا البشرة السمراء ساخط على مستوى إنتاجنا وأسلوب عملنا، وبدا لنا وهو يلوّح بالقضيب الصلب كأنه يداعب المعلم، فإذا هو يهوي به على خاصرته، فصرخ أستاذنا صرخة عظيمة وتعثر وسقط يتأوّه، وتلاميذه مأخوذون بصمت مطبق كمثل جرادِ حقولٍ تجمّد تحت شتاء زمهرير.

امتدت الأيدي تساند الأستاذ مالاو، لكن صموده وكبرياءه كانا يستدران الدمع في الأحداق.. ابن الكلاب.. كيف يطيش عقله ويضرب الناس هكذا؟

كلمة قيلت، لكنها دفعت مالاو ليجهش بالبكاء، فتحلّق حوله تلاميذه

يهدئونه كما يهدئون طفلاً مرتاعاً، يخفضون من روعه، ثم إذا بضعفه يغلبه فينتحب؛ فيرتج علينا ولا ندري مانفعل، وتأتي شويا من السطل بفطائر باردة وتقدمها له، وتدفعها في فمه، فيمسح عينه ويتمخّط ويقضم قطعة قطعة، وهو يتأوه ويستكن بين كل قضمتين، وينتفخ خداه ثم ينكمشان في هيئة بغيضة. ثم فوجئنا به يصيح عالياً، فأجفلنا وشدَّ أنظارَنا إليه لا نعرف ما أصابه، فإذا به يتقيأ مضغة الفطائر في كف يده، وراح يتفحص شيئاً لم يستسغ ابتلاعه، وأشار لنا بما رآه، فهالنا ما طالعنا تحت ضوء النهار الذي يغشى الأبصار، إذ رأينا إصبعاً آدمية تلمع لمعان أصداف بحرية، فأخذ يقلبها في يده ويديرها بين أصابعه وهو تائه حيران كمثل فرخ دجاج ارتطم رأسه بحجر، قال: ما هذا بالضبط.. هه؟ ما هذا الذي أراه؟ قال لي دونغتساي: لابد أن الطاهي قطع إصبعه غافلاً، أمعقول أن يكون هناك احتمال آخر؟.. صحيح. قال. صحيح.. ممكن جداً، لكنه ظل يتقيأ حتى انقلبت أمعاؤنا.

قبيل المساء، حدث أن أجفل الحصان الذي كان يجر عربةً ويجري على الطريق العام المحاذي لشريط السكة الحديدية، وقد استمات الحوذي الكهل في السيطرة على اللجام بكل قوته، وبُح صوته وهو يزجر حصانه الذي كان طافراً، تكاد حوافره لا تمس الأرض من شدة جريانه، وهو منطلق ككرة مطاطية انطلقت ولا مثبّت لها؛ فكان حصان السبق القديم يعدو، رأسه ذاهب في السماء، وعرفه يتماوج طائراً مع الريح، وعيناه المدورتان تبرقان بالنور الوهّاج، وأخيراً أطاح بالحوذي، وفي لمحة بارقٍ قلبَ العربة وطار منها رامحاً، وصار الحوذي يتقلّب في التراب، عدة دوراتٍ سريعة

أول الأمر، ثم تباطأت حتى خمدت، فبات في النهاية منبطحاً على وجهه، كمثل مضطجع أخذته سنة من نوم أو شبه كومة من تراب، وفي الوقت نفسه كان عريش العربة مرتفعاً كرأس عالٍ ماضٍ في السماء، كان عريش الحصان أسود اللون بينما عريش العربة شديدُ الحمرة، ككرة من لهب تطير وراء سحابة سوداء؛ فذكّرني المشهد برمز العجلة الثورية الدوّارة، التي لا يصد حركتها أحد. كان بالعربة بضعة أشياء متكومة، لونها ضارب إلى الأصفر الذهبي، أخذت ترتطم بالمنحدرات وتتقافز حتى تطوحت على بسيط من الخلاء، ولما يثبتْ دورانها، وإذ تدحرجت العربة هاج على الطريق مثارُ الغبار. و لم يسعنا إلا أن نعبُر الشريط الحديدي صوب الطريق العام، ففوجئنا أثناء عبورنا بصرخة من زميلة لنا كانت تجري بجوارنا، فإذا هي ليسوي وقد تعثرت أقدامها بعوارض السكة الحديدية، التي هي الفلنكات الخشبية بين القضبان، وسقطت فانكسرت سنتاها الأماميتان، فأسرع من أنهضها. وأنا جريت مع الباقين إلى الطريق العمومي لاستقصاء حال الحوذي الكهل ذي اللحية الكثة والوجه المألوف، وناديناه فلم يجبنا، فجرّب الأريب منا أن يدلّكَ قلبه، فكان القلب خامداً لاينبض، واتضح أن الأشياء الساقطة من العربة عبارة عن حفنات من خبز الذرة الطري الطازج، الذي تصاعد من سطحه البخار، فتهالك الجمع عليه وحشوا به أفواههم، وجعلوا يجمعون منه كومة كبيرة، أما البنت ليسوي فقد جلست تحمل قاطعتيها المخلوعتين وتبكي، فقال لها المعلم مالاو:

لا تحزني، ولتتخذي بعد عودتك إلى البيت سنّتين صناعيتين.

هدأت ليسوي وكفكفت الدمع ووضعت القواطع في جيبها كأنهما لقية ثمينة، ورفعت خبز الذرة إلى فمها، وعضت عليه بأسنان الشدقين.

وفي أول الليل قال مالاو: عودوا الآن يازملاء إلى بيوتكم، وامشوا رفاقاً غير فرادى، ولسوف أتحمل مسؤوليتي في هذا الموقع.

– لكنا لم ننته من تكسير صخور الخامات المعدنية.. كذا سأله بعضهم.

– تكسير ماذا؟.. اضحكوا على عقولكم بهذه الكلمة، قال المعلم مالاو.. كل واحد وطريقه، ليت بعضكم يذهب إلى المعلمة يوي مديرة المدرسة ويوصّل لها رسالة قصيرة.. قولوا: المعلم بخير، ولا داع للقلق.

تحسسنا طريقنا في الظلام، فلما انتصف الليل باتت كعوبنا متورمة وعجزنا عن المشي، ونزلنا على قرية تُؤوينا حتى انبلاج الصبح، وفي غرفة قديمة متهالكة انحشرنا على الارض كل عشرة على حصير من قش القمح، الأولاد في ناحية، والبنات في الناحية أخرى، ونظرت فإذا شويا على شمالي، فكانت المسافة بيننا هي الحد الفاصل بين الذكور والإناث، ومع ذلك فقد بلغني أن سقطات ماجنة وقعت أثناء المبيت تلك الليلة، تسبب في معظمها الزملاء البالغونً؛ ذلك أن الفصل السادس كان يضم من بين تلاميذه أعداداً من المراهقين، فكان هناك مثلاً كوباوفا البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، بل إن الفتاة ليسوي التي ارتطمت بالعوارض ففقدت أسنانها الأمامية، كانت في العشرين؛ وبالمناسبة فإن هذين الأخيرين تزوجا فيما بعد وأنجبا حفنة من الأولاد، بيد أنهما توفيا أثناء مجاعة الستينيات.

وصلنا بيوتنا في صباح اليوم التالي، وكان ثمة إناء فخاري يغلي وبداخله عدد من ثمار البطاطا الحمراء، وجدتي جالسة مطأطئة تؤجج الوقيد، وقد احمرّت عينها ودمعت إثر الدخان الأسود المتصاعد من خلال أخشاب شجر الصفيراء، فبدت كعيني أرنب عجوز، وكنت أنظر إليها وأضحك وشويا إلى جانبي تشاركني لحظة المرح الساخر، وللتو دخل أبي قادماً من خارج البيت وبيده فأس قديمة، ودون أية مقدمات قال: رأس الفأس الحديدية لاتثبت في الشق الخشبي.. ماذا أفعل؟ حاولتأكثر من مرة، ولا فائدة. قاطعه جدي قائلاً: ماذا؟ هل انكسرت فأسك؟ وفجأة اقتحم المعلم مالاو المكان وصاح زاعقاً: ما هذا الذي تطبخونه؟.. هه؟ أي طعام ذاك الذي يثير كل هذه الرائحة؟ ثم إنه واصل قائلاً: لكم التهنئة من كل قلبي.

منتصباً كعود بامبو ممشوق وجاف، قدم لنا المعلم مالاو رسالة من إدارة الإقليم تفيد بأنه تم قبولنا وتسجيل أسمائنا ضمن طلاب المرحلة الإعدادية. في ذلك الحين، وبعد انتهاء التجربة الشاقة في مهمة تكسير الخامات المعدنية، يمكن القول بأن كل ماكان عالقاً بيننا وبين المعلم مالاو من عداوة وسوء فهم تمت تصفيته تماماً، و لم يعد له أي أثر؛ حتى إنه بعد زواجه من المعلمة يوي وانجابها طفلهما الأول أهديناهما، أنا وشويا، أسماك الكراكي المبرقشة، ذات الخطم الطويل، وكانت من صيد جدي، لكنه كان وضعها في حوض كبير دون أن يضع لها شيئاً تأكله، فبادلناها منه بخمسة جينات [كيلوغرامين ونصف] من فول الصويا السوداء، بيد أنا كنا عثرنا عليها مصادفة في أحد مخابئ فئران الحقول.

كانت أيام شدّة وعسر، حتى تقرح وجه جدتي بسبب ما كانت تتناوله من النباتات البرية، وأنواع من الحشائش غير المستساغة للأكل، فأصيبت بالتسمم وانتفخ وجهها واستحال شبيهاً بكرة البالون الطائر، أما جدي فبفضل انتمائه لفئة آكلي طعام البحور فقد بقي يتمتع بصحة طيبة، ولو أنها تدهورت بعض الشيء عما كان عليه في وقت سابق.

جلس المعلم مالاو على عتبة بيتنا، وأخذ يفضفض عن مكنون صدره وأوجاع أيامه، فقاطعه جدي قائلاً:

بالنسبة للمزارع الجماعية، أو كما تقولون عنها.. الكومونة الشعبية، فعلى رأي من قال.. ذيل الأرنب مهما أرخيت له العنان، فلن يطول.. أي، باختصار، أيامها لن تدوم كثيراً!

كان رأي الجد أشبه بنبوءة مريرة أو لعنة موبوءة ارتعدت لها فرائص أبي، فأسرع يقول: يا والدنا العزيز.. أعط أحفادك الأمل.. لا تسوّد الدنيا في عيونهم.

بعد عدة همهمات ساخرة، قام الجد وسحب شوكة السلاحف البحرية، وكانت له مهارة عجيبة في غرسها في جسم الصيد بضربة واحدة.

كانت جدتي تسهم بطريقتها في مساعدة فريق الانتاج، فكانت تقوم بطحن القمح له، خصوصاً وقد نفقت الخيول والدواب التي كانت تدير عجلات دولاب الطحن، علماً بأنها نفقت جوعاً.

جلست الجدة قبالة الفرن صامتة، ولم يعد في نيتها أن تفتح معنا موضوع الدراسة وما إذا كنا سنواصل المرحلة المتوسطة، التي هي المدرسة الإعدادية.

قام أبي واقفاً وراح يرافق المعلم مالاو مودعاً إياه عند البوابة، ثم عاد وقال لنا: بقاؤكما وسطنا في البيت لن يعفيكما من الجوع، فاذهبا لشأنكما، وعموماً، فوصولكما إلى هذه المرحلة الدراسية لم يكن بالأمر السهل.

قالت شويا: أقول لك بصراحة يا أبي، المستحق للدراسة هو شوكن، فدعه يذهب وحده، وسأبقى أنا هنا أجمع الزرع أو أساعدكم في الصيد، فالأيام صعبة، ولابد أن تكون يدي معكم.

نظر إليها أبي وقال: شويا، ذهابك إلى المدرسة أهم من ذهاب شوكن نفسه، وإلا ماذا أقول لنفسي إذا خالفت وصية السيد موروريا؟!

شويا قالت: انظر، شوكن ولد ورأسه كبيرة تجعله ذكياً، ومؤكد أن مستقبله سيكون أحسن.

لم ينطق أبي ولم يرد عليها بشيء.

قبيل بدء الدراسة بعدة أيام، ذهبت مع شويا إلى الأحراش والمرعى البعيد لنقطف الحشائش والأعشاب الجافة، إذ كان يمكن بعد تعريضها للشمس لبعض الوقت أن تُخبز للأكل، ولحسن الحظ فلم تحل المجاعة دون سماء مشرقة وشمس قادحة، لكن ثبت أن موسم الجوع كان بشرياً أرضياً فقط

وليس جوياً، أي مختصاً ببني الإنسان دون الطير؛ ذلك أن الجيفة المطروحة والجثث المتحللة ملء الحقول البائرة والبراري القاحلة كانت نعيماً ما بعده نعيم لأسراب من الطير والجراد، فمن ثم تزايدت أعدادها حتى لم يكن الماشي يمشي عدة خطوات وسط الحشائش دون أن تتناثر عليه وحوله عشرات من فصائل الجراد كأنها ندف أو شظيات مارقة، لأنها كانت في انطلاقة فزعها تحوم عالياً فتظهر بواطن أجنحتها حمراء لامعة، فما تكاد تبرق حتى تنطفئ خفية دون دبيب، تلمحها العين فتبهر الحدق لوقت محدود. وصار والد زميلنا لي دونغتساي يمشي في الحقول وهو يمسك ثمرة القرع المعروفة باسم (هولو) وقد قطعها نصفين وحمل نصفاً واحداً على هيئة الطبق المدور، وأخذ يجمع فيها مايستطيع من الجراد الطائر، لم يكن في القرية كلها أحد يجاريه في استساغته لطعم تلك الأشياء. صحيح أننا تذوقناها في بعض المرات، لكن بطوننا انتفخت وأصابنا إسهال شديد كادت أرواحنا تزهق بسببه، فكانت مرّة و لم تتكرر، ولعل أمعاء الرجل ومعدته تآلفت مع عصارتها فاكتسب من جراء ذلك قوة ما، كان من أثرها أنه وبينما راح الجميع يتضورون جوعاً، إذا بذلك الكهل الأشيب يمضي بينهم ببشرة لامعة ووجه يفيض حيوية، وروحه دائماً هادئة مطمئنة، عالمها براح ومداها آفاقُ مسرّة، وأينما ذهب كان صفير فمه شدوَ أنغام، رأيناه فقلنا له: تُرى كم جيناً (وزنة) من الجراد اصطدت أيها العم ليجيا؟ صوّب فينا عينيه، ثم فرد ذراعه كأنه يطير به، فالتقط جرادة طائرة، وفصل عنها رأسها وألقاه بعيدا وأسقط الجسم في نصف ثمرة القرع التي تشبه الطبق المدوّر. ومن بين كومة حشائش اعتدل السيد موررويا واقفاً بعد

انحناءة بنصف جسد، فأتى العم ليجيا ورجاه أن يعطيه جرادة، فأبى عليه وامتنع عن إعطائه وقال له ساخطاً: مالك؟ أليس لك ذراع تصطاد بها؟ ومع ذلك، فلم يردّه خائباً، وانتقى له أضخم جرادة في الطبق وأعطاه إياها، فالتقمها بفمه، وصار يمضغ..

هبت الريح فتماوجت ذؤابات الحشائش، كمثل أمواج تقلّبت، فمشينا أنا وشويا نبحث عن أعشاب جافة، وقد تعلّق بطرف فم البنت وردة صفراء، ثم إنها أفلتت الورده من ثغرها فجأة وسألتني:

– أصحيح أن أبي كانت تربطه بأمنا علاقة غير شرعية؟

احمرّ وجهي، وأحسست بأني تلقيت أبشع إهانة في حياتي، قلت:

– سُدي أذنيك عن كلام ضراط الكلب هذا!

شويا قالت: واضح أني أغضبتك، لكن حتى لو كان الأمر هكذا فعلاً، أليس هذا تأكيداً لحميمية زائدة بيننا؟

تجاهلتها وطوّحت السلة بعيداً، وجعلت أقلّب الأرض بالشوكة، فاقتلعت بضع أعشاب من جذورها.

أخي.. قالت. لا تغضب أرجوك.. وعموماً فسواء طالت الأيام أو قصرت فسأكون امرأتك، ففيم غضبك؟

ما هذا التخريف؟ من قال إنك ستصيرين امرأتي؟ طالت أو قصرت الأيام؟ بقيت ألمحها وهي تتكلم، فتكشف لي أنها أبهى جمالاً.

أمنا هي التي قالت.. كذا حدثتني بهدوء.

من بعيد تردد صدى طلقات رصاص، فأطللنا ننظر ما الأمر، فإذا الرجل الأعرج، الذي أصبح الآن أحد كوادر الحزب، يصطاد البط البري ببندقية.

طفقت شويا تقتلع الأعشاب.. قالت: حلمت في الليلة الفائتة حلماً.

– فماذا رأيت في الأحلام؟

– رأيت أمنا تسرق حبات الخواندو (الصويا) فضبطها العم وانغ ماتسي، وأجرى عليها العقاب بأن تركع، فتحلّقت حولها ثلة من الناس تتفرّج عليها.

– وهل تحققت الرؤيا؟

– من الخير ألا تتحقق.

ثبت ببرهان الحقائق الدامغة أن رؤيا شويا تمتثل لشاهد الواقع. ونحن لم نقتلع عشباً، بل جرينا نلهث صوب مطحن فريق العمل.

المطحن كائن بساحة بيت الثري الأمثل السيد ليو، وعند مدخل البيت أقعى وانغ ماتسي، وإذ أقبلنا عليه قام واقفاً وانتهرَنا متوعداً:

– ما لكم؟ ماذا تريدون بمجيئكم هنا؟

– نريد أن نرى أمنا.. قالت شويا

– ممنوع.. المطحنة موقع عمل مهم.. ممنوع الدخول لغير العاملين فيها.

– ممنوع أن نرى أمنا؟

– ومن يضمن ألا تسرقا الحبوب.. أو تضعا السم في الدقيق؟

– نحن طلبة متفوقون.. وسيلتحق أخي بالمدرسة المتوسطة.

ضحك وانغ ماتسي ساخراً وبدت في وجهه الحاقد علامات كراهية مريرة، قال: أي ثورة هذه بالضبط؟!.. أنتم في المجتمع البائد عشتم رغداً وملأتم بطونكم.. وفي المجتمع الجديد تدخلون المدارس العالية.. هل هذا عدل!

شويا رفعت صدرها في تحد، قائلة: الكلب لو دار في الدنيا بطولها وعرضها لن يأكل إلا خراء، والذئب لو طاف بالعالم لن يطعم إلا جيفة.. موتوا بغيظكم أيها المخلّطون الأوباش.

عجيبة! هل هذا يعني أن الأوباش والمخلطين هم نحن؟ كنت أظن أنهم معروفون للكل! أشار ماتسي بإصبعه المفرودة قائلاً: اسمعوا يا أوباش، مهما كنتم ومهما كنا، فلن يبقى ابن العز عزيزاً، ولن يبقى الورد ريحاناً.. لكل فاجر يوم، وسوف نرى ما يأتي مع الأيام.

جذبتني شويا من ذراعي، ومضت بي تشق الطريق بصدر نافر، فاضطرّ وانغ ماتسي أن ينتحي جانباً.

دخلنا غرفة الطحين، فكان الضوء شحيحاً جداً، وأزكمت أنوفنا، في الحال، رائحة الدقيق وقد شابتها زنخة نتن كثيفة، كان صوت الماكينة يهدر في جنبات المكان.. لونغ لونغ لونغ.. والتفتنا فرأينا عددا من الأفراد الذين احتجبت عنا ملامحهم بسبب العتمة، وكانوا يحركون معاً حَجَرَي الطحْن الكبيرين، بلونهما الأحمر الداكن، وببطء شديد كانت تتم لهما دورة كاملة بين حين وآخر. ثم إن صوتاً أجش صاح قائلاً: يا.. يا امرأة أخي.. أولادك هنا يبحثون عنك.

تقدمت شويا وهي تتصنع الإعياء، فكانت تتحسس رأسها وتسأل بعضهم:

– هل تعرفون أين أمي ياحضرات؟

– أمك دخلت جحر الفأرة. كان الكلام لامرأة العم وانغ، بصوتها الفظ الخشن.

قالت شويا: ما هذا الصوت البهيمي المشقوق الحلق؟!

وسط ضجة من الضحك، جاء صوت أمي: عيب.. تأدبي يا قبيحة وأنت تكلمين امرأة مثل أمك.

في تلك الساعة، كانت عيوننا قد عركت الظلمة، فبدأت تتضح ملامح الأشياء، ولاح لنا منظر أمي وهي تميل بجسدها تدير عامود المطحن، وقد تفرق الشيب في شعرها، وشحب وجهها، وهي تدير عجلة الطحين الدوارة، أخذت النسوة يمتدحن جمال الابنة شويا والولد النابه. قالت أمي: لست أخشى عليهم سوى غدر الأيام.

بقينا واقفين حتى انتهت النساء من نوبة عملهن، فخرجنا بصحبة والدتنا، ونحن نفكر في طريقة لتكسير الحلم وإبطال آثاره.

سألتُ الأم بهدوء: لا تنزعجي إذا سألتك يا أمي إن كنت تخفين في ثيابك الآن شيئاً من الحبوب!.. أقول لك من دون لف أو دوران.. لا داعي أن تخرجي من هنا اليوم وأنت تحملين شيئاً من الطحين.

بطرف عينها نظرت لي شزراً، قالت: اخرس.

كان وانغ ماتسي واقفاً يسد طريق المارين بالباب، يفتش كل عاملة تخرج من المطحن، واحدة بعد أخرى، ولاحظتُ أنه تساهل مع كل من كن في أول الطابور، فلما جاء الدور على أمي، لمعت عينه بالشر فأدركت أن المصيبة واقعة، لا مفر.

من جيب أمي أخرج ماتسي بكلتا يديه حفنتين من فول الصويا، فامتقع وجهها وكلمتْه بصوت خفيض تستعطفه: أنت مثل أخي الأكبر.. لم يكن بيننا دائماً إلا الود.. ولن يكون إلا كل خير..

تأمّلني ماتسي، ونظر ملياً إلى شويا، ثم قال: لكن من ناحيتي أنا، فلم يكن بيننا إلا البغضاء، ولن تكون هناك سوى الكراهية.. اركعي من دون مناقشة.

وحـدث أن جاءنـا، فيما بعـد، أحد الموظفـين العاملـين في المجلس القـروي، وأبلغنا أن العقوبة المقررة علينا من جراء تلك السرقة، هي خصم عدد عشرة جينات من الحبوب المخصص صرفها لنا، فبكت أمي، وإذ عدنا

إلى البيـت فقد انهالت عليها الجدة تأنيبـاً وأفرغت فينا حشد صدرها من المرارة، فلـم تسكت شويا، وأجابتها في غيظ قائلة: لماذا كل هذا التحامل غـير المفهـوم؛ خصوصاً أنك كنت أكـثر من ملأ بطنه بكميـات هائلة مما جاءت به والدتي إلى المنزل من الحبوب؟

قالت الجدة: لكن العقوبة جاءت غليظة جداً؛ إن عشرة جينات ليست بالأمر الهيّن، والمشكلة أنها سوف تقتطع من مصروفنا الشيء الكثير.

قال والدي وقد بلغ به السخط غايته: كم تمنيت ألا يقدم أحدنا على هذه الفعلة الشنيعة، وكم حذرتكم من مغبتها، لدرجة أن الواحد منا يفضّل أن يموت جوعاً دون أن يفضح وجهه أمام الناس.

قالت شويا: لو قلنا الحق.. فالكل يسرق.

أجابها أبي: لا تقاطعيني.. عيب على طفلة أن تقاطع أباها.

احتدت شويا: لكني سوف أقاطعك.

قالت الجدة: من تكونين أنت يا طالعة من البيضة حتى تتبجحي وتقفي لنا بالمرصاد هكذا؟ ليكن في علمك أننا لو لم نأخذك في رعايتنا منذ يومك الأول لكنت الآن مجرد شبح من أشباح الموتى.

ردّت عليها شويا، قائلة: أعرف دون أن تخبرَني.. لكن أريد أن أذكّرك بأن أحداً لم يأخذني في رعايته سوى أمي فقط.. ولا أحد غيرها.

قال أبي: انتهينا.. لا داع للشجار.

كذلك أضاف جدي: اهدؤوا.. ليس من محبة إلا بعد عداوة!

بقيت جدتي تثرثر فيما بينها وبين نفسها، فالتقط جدي عصا طويلة كانت بجانبه، وصوّب ناحيتها كما يصوَّب الرمح في ألعاب الرماية بالعصيّ، وأطلقه عليها، فتفادته الجدة، وسكتت بعدها فلم تنطق بكلمة.

راحت الأم لتواصل عملها في تدوير الطاحونة، ففوجئت بـ وانغ ماتسي يصدها عن الدخول ويطردها، فعادت دامعة العين وجلست بجانب الفرن شاردة الذهن. قالت شويا: سأذهب عنك أنا يا أمي. وصارت شويا منذ يومئذ تنوب عن الوالدة في المطحن، فلم تمض على ذلك عشرة أيام كاملة حتى كنت أقصد إلى المدرسة الأولية المتوسطة، على مستوى الإقليم، لكي أسجل اسمي في جداول القيد الرسمي، فما إن دلفت من باب المدرسة حتى لقيت المعلم تشن شنغ ين، وكان يسعل بشدة، فانحنيت له تبجيلاً، فلم يكترث، وأشار عرضاً بتحية بيده الملوثة بالدم، ثم استدار منصرفاً. وكان أن قابلت وجوهاً مصفرّة بأجساد نحيفة مهزولة، سواء من الطلبة أو الأساتذة، وأثناء الدرس كان صوت المعلم خفيضاً للغاية، فيما غامت أعين الطلبة وانتاب معظمهم النعاس، وأبلغنا أن المدرسة قررت إلغاء حصص التربية البدنية؛ بزعم الحفاظ على الطاقة قدر الإمكان، وقد تخلّى الأساتذة عن الوقار المعتاد فصاروا أحياناً يسألون الطلبة أن يعطوهم بعضاً من الفطائر أو الخبز اليابس، وكانت الفطائر التي أحضرتها من البيت مختلطة بالحبوب، فكان كثير من أساتذتي، بل زملائي أيضاً، يتهافتون عليها، وقال المعلم دان: من المؤكد أن والدك يا

شوكن يعمــل مراقباً للحبوب، فهززت رأسي بالنفــي، فقال: هذا أغرب شــيء سمعته في حياتــي.. إذا كان والــدك لا يعمل مراقــب أغذية، فمن أيــن لك بفطائر من هــذا النوع؟ فقلت له ولهم: أختــي تعمل في مطحنة القريــة.. ولشدة ذكائها، فقــد ابتكرت طريقة يصعب علــى الجن إتيانُها في سرقــة الحبــوب.. طريقة مختلفة كليــاً عما اعتادته العامــلات هناك من إخفاء الحبــوب في الجيوب أو أعناق الجوارب، وهو ما لا يفلت من رقابة العــين الساهرة واليد المتفحصة للسيد ماتسي، فكانت أختي تقصد مكانا معتماً قبيل انتهاء نوبة عملها، فتلتهم في معدتها كمية معتبرة من الحبوب، ثم تمضــي في طريق العودة، تتبخــتر كطاووس، وإذ تدخــل البيت تسرع إلى إنــاء مليء بميــاه نقية وتلتقط عصا الطعام الخشبيــة الرفيعة، فتضعها في جوفهــا لتهيّج المعدة، وسرعان ما تلفظ حمولتها، وكانت الكمية الملفوظة تتفــاوت في النوع والكم، حسب طاقة الابتــلاع والمصادفة الطيبة، فمرة تكــون هناك بازلاء، أو ربما بعض القمح أو الــذرة؛ المهم في كل الأحوال أن الكمية الملفوظة تمر بعملية شطف جيدة ثم تسحق في هاون الثوم تمهيداً لخلطهــا بالخضار وطبخها في نهاية الأمر، ولكثرة ما تعرض جوف البنت لتهييــج عنيف بالعصــا، فقد التهــب وبقي ينزف في كثير مــن الأوقات، حتــى كانــت الحبوب الملفوظة مــن معدتها تنزل مختلطة بآثــار دماء.. فما رأيكــم أيها الزملاء والأساتذة الأفاضــل، في هذا التصرف، وبهذه الروح المناضلــة؟ قال الأستاذ: فصول مؤثرة مــن واقع حي.. لكن الروح ليست نضالية ولا تمثّل السوفييت، التي هي وحدات تتبع منظومة سلطة سياسية، يفترضــ فيها الشعور بالمسؤولية.. هذي فصــول يمكن أن تكتب في نص

مسرحي.. نص ابداعي يستدر الدموع. لكن قل لنا.. متى تستطيع أن تعرفنا على أختك هذه؟ هذا ما قاله أحد الزملاء. قلت: غداً ستأتي لي بالطعام. على ظهرها كيس يحوي خبزاً من ذرة وقمح، كذا رأيتها منذ زمان في الحلم تأتي، عند باب المدرسة كانت تقول بابتسامة أشرقت بها ملامح الوجه: حلمت بك يا أخي وأنت تقف موضعك هذا.. المدرسة شكلها في الحلم كما في اليقظة.. انطباق صورة على أصل. كانت نحيلة بعض الشيء، لكن البهاء قديم والإشراق معهود عهد الزمان. قلت: كفاك يا شويا.. لا يمكن أن تبقي تجرحين حلقك هكذا. قالت: كيف عرفت أن حلقي مجروح "هكذا"؟. جعلت أربت على رأسها قائلاً: أنسيت أني أجيد رؤى الأحلام؟ وهي ضحكت وقالت: أنا لا أريد لنفسي هذه المقدرة.. فالأشياء الطيبة لا تأتي في الحلم.. ليس سوى الدواهي.. فكأني أحمل ذنبين ليس لي فيهما يد. قالت: حلمت البارحة بأبي وأمي.. منظرهما في المنام كان مخيفاً. قلت: ليتني تفارقني الأحلام.. فقد توالت حلماً إثر حلم حتى ما عدت أعرف آلحق ما أرى أم الزيف. عرف الزملاء أن أختي قد جاءت فهرعوا إلى البوابة جميعهم، وقالوا إنهم يريدون أن يتعرّفوا إلى تلك التي انطوت روحها على مشاعر أصيلة، وإن لم تكن ضمن عناصر السوفييت. رأيتهم يقفون أمام بهاء طلوعها، واحداً واحداً، بوجوههم المغبرة وشعورهم المشعثة، لا ينطقون كلمات تامة، واجمين كانوا، حتى أستاذي سو لاوشي الذي درَّسني اللغة الروسية، وكثيراً ما شاركني فيما كان يجيئني من خبز الذرة؛ أقبل هو الآخر، وما إن رآها حتى صاح مبهوراً: يااااه، ثم واتاه الشرود فشرد، مفتوح العين كان، والوجه منه تائه

متاهــةَ بُلهــاء. تضايقت من منظره الذي كان يسيء كثـيراً إلى وقار المهنة، لكزْتــه في ذراعــه، قلت: تفضــل اجلس يا أستاذ ســو لاوشي. قال سو لا وشــي.. يــا للجمال الفتّان.. يــا لقرب الشبه بينها وبــين كثير من نجمات الفــن في روسيــا. أشار ناحية أختــي قائلاً لها: ما أجملــك وأنت تسيرين في شوارع موسكو، تفتتن بــك عيون الناظرين. شيء لا يمكن احتماله أو تصــوره! بالمناسبة، فالمعلم سو لاوشي، أصلاً، من إقليم هاربين، الذي هو الإقليــم الصينــي المتاخم لروسيا، وكان سيادته قــد علق واحدة من فتيات روسيــا البيضــاء، وعاش معها علاقة حب؛ ولذلك جــرى اتهامه بالموالاة لاتجاهــات يمينية، وأياً ما كان فقد تبيّن أن عاداته وسلوكياته أعصى من أن تنصلح؛ فمن ثم لم يكن غريباً أن تنتشر، بسبب أمثاله، أفكار تصم دارسي اللغــات الأجنبية بالتصعلك والانحلال. وكان أن المعلم سو لاوشي جعل يلاحــق شويا بالحديث، فسألهــا عن سبب عدم مواصلتهــا الدراسة، فلم تجبــه بشيء وأشاحت عنه. قلت إن أختــي تنازلت عن حقها في الدراسة؛ تضحيــةً نبيلة منها لكــي أواصل مســار التعليم. هنالك تنهّــد المعلم بملء مشاعــره، وخلع نظارته ليمسح عن زجاجها غبشته، قال: قلب شفاف.. قلب صاف كمثل روح طاهرة. وجاء وقت مجيء التلميذات لمقابلة شويا، فــكان اللقاء تمييزاً بــين ضدين؛ حيث كان منظرهن وهــي شاخصة إليهن كمقابلة بين عنقاء الحُسن وديوك البراري، و لم يتبادل الطرفان كثير حوار، سوى ما يقال عادة من أن الغد سيكون أفضل، وأن شويا ينتظرها مستقبل رائع أمــام كاميرات السينما يوماً ما، وأن ظهورهــا على الشاشة الكبيرة، كفيــل بأن يطفئ لمعان نجوم الفن.. مثل يانغ تشينآي أو وان دانفن. وبينما

الجميـع في ذلك، إذا وكيل المدرسة الأستـاذ سون داتزوي (سون الثرثار) يحضر إلينا بنفسه بعد انتهاء الغداء، وكان يمسك بطرفي إصبعه عود حطب مفلوقاً ينظف به بين أسنانه، قال:

اسمـع يا شوكن يابنـي.. قل لأختك أن تنصرف حـالاً وكفى إلى هذا الحـد.. هذه منشـأة تعليميـة.. وليست ناصيـة شارع الزهـور (شوارع دعارة، قديماً). ردّت أختي عليه قائلة:

في دبـر أهلك أجمعين.. هل تفهم ما تقول حتـى تشبهني بساقطات نواصٍ؟

لسانها ذو السب الجريء الفاحش أفزع الأستاذ سون، فذهل وانكتم، أمـا التلاميـذ الحاضرون فقد انبسطـت ملامحهم وانفتحـت أشداقهم من السـرور، غالباً، إثـر سماعهم عبارة الشتم الخالـدة، وكانوا يبغضون هذا الـــ سون داتـزوي لما كان يبديه من بهيمية في سلوكـه معهم؛ فلم يسلَموا من قيامه بالتهجم عليهـم للاستيلاء على مأكولاتهم، بما كان يستتبع ذلك من اعتدائه المباشر على أجسادهم بالضرب والركل؛ حتى إذا بدا لخيالنا أن يتصور منظر جواسيس مكتب الاستخبـارات التابع لقوات الكومينتانغ، ببشاعتهـم ورذالـة تصرفاتهم، فقد كنـا نستدعي صورة سـون داتزوي، بوصفه أقرب تمثيل حي لذلك المثال البغيض.

في تلك الأثنـاء كان الأستاذ سون قد استعاد انتباهه بعد الذهول الذي انتابه للحظات، فصاح قائلاً:

امضـــي حالاً.. امشي إلى أي داهية بعيداً عن هنا. ليس بعيداً أن تكوني جاسوسة علينا.

زعق فيه المعلم سو لاوشي، غاضباً:

لا يا سيادة الوكيل.. أنت تجاوزت حدودك. جاء رد الأستاذ سون:

وأنت أيضاً شكلك ليس بعيداً عن الجواسيس.

خرجت ويدي بيد شويا، أوصلها إلى خارج المدرسة، قالت:

مدرستكـم هـذه هـي أوسخ مدرسـة في العـالم، قلت: هـي بالفعل كذلك.

قالت: جدك نسج شبكة قفصية جديدة، أي شبكة مربعة تشبه القفص، عيونهـا ضيقة كمثل فتحات الناموسيـة، وقد عملها خصيصاً لأجل صيد القريدسـ، أما زلت تحب القريدس النـيء؟ يا لقفزاته وهو بعَدُ حيٌّ يتنطّط في الحلق، أنا أيضاً يأتيني مثل هذا الشعور. قلت:

طبعـاً أحبه، لكني عزمـت ألا أقربه، ويخطر ببالي أن أحلم حلماً ينزع من أعماقي هيامي به.

قالـت شويا إن العـم ماتسي وهو يفتشها لم يكن طيـب النية، كما قد يقال، فعبث بها فسبته سباً منكراً.

قالـت: أحسـ أني نضجت كما تنضج الفتيات، وصـرت مثلهن أفهم تلـك الأشياء، فتعـال يوم الأحد لنعجـل بالزواج، متدخـل بي وتتخذني امرأتك.

قلت: محال، هذا عين المحال، فأنتِ بعدُ في السادسة عشرة.

قالت: أنا أكبر حتى من فتاة العشرين.

قلت: مازالت أمامنا عدة سنوات، وحين يجيء وقت دخولي الجامعة، نتكلم.

وبصوت حزين قالت: نبقى، إذن، ننتظر طويلاً.. عدة سنوات نقعد وأيدينا على الخدود، وعندما يجيء الوقت تكون أنت قد زهدت بي ورأيت لك رأياً آخر.

قلت: شيء من ذلك لن يكون، أنا وأنت منذُ سنوات الصبا، براعم خضراء فوق جياد من أغصان البامبو لعبنا، علقت بي وعشقتك عشق طفل طاهر القلب كان، من ثدي أمٍّ ارتوينا وكبرنا.

قالت: في المرة القادمة آتيك ببعض القريدس أعده لك بيدي.

قلت: أقسمت ألا تفعلي، فلن أذوق منه بتاتاً. ومشيت حتى أوصلَها إلى الطريق الكبير.. أقول لها: ارحمي حلقك من العذاب.. كفاك ابتلاع خبيء المطحنة من كميات الحبوب.

لما رجعت إلى نزل المبيت الداخلي بالمدرسة، وجدت المعلم سو لاوشي يقول لي:

أنت فعلاً جلّاب خير، وبناصيتك معقودة كل الأماني الحلوة. ها قد عرفني إذن. في تلك اللحظة عينها، جاء لي جينسان ليبلغنا أن زميلنا تاي جيانكوا المقيم بالقرية الشمالية تناول كميات هائلة من خبز الصويا

فانتفخــت بطنه ومات، وأضــاف لي جينسان أن الولــد لم يكن يصح أن يلتقم في وجبة واحدة ما مقــداره جينان (كيلوغرام) من الخبز، والمشكلة أنــه شرب كمية هائلة من الماء بعــد الأكل فانتفخت بطنه وبقيت مثل جرة امتلأت حتى بطنت، وهنالك أجهش الجميع، والأستاذ سو لاوشي قال:

كفّوا يا زمــلاء، هل سنظل هكذا.. نموت واحــداً بعد الآخر، ونبكي بعضنــا بعضاً.. هــل نقبع في انتظار الموت جوعاً كل يــوم؟ كل يوم ننتظر ولا نجــد ما نقتات من الحبوب، والأرض مترعة بكل هذا الخصب والجو هــو أكثر الأجواء مناسبة لزراعات وفــيرة؟ إلى متى ندع فتاة في رقة الورد تضطرهــا الظروف أن تجــتر كيمامة خبيء حواصلهــا؟ انظروا، قد نموت جميعــاً، لكن ليو شوكــن لا يجب أن يموت.. أنــت إذا مت فقد ضاعت أمنيــات العمر الصادقــة التي كانت تؤملها فيك أختــك. أطرق المعلم سو لاوشي وقــد سبقته دموعه، ومن خارج الممرات تــرددت الصيحة كزئير غيلان: إلى النــوم!

جاءت عطلة الصيف، فعدت إلى البلدة، ولقيني جداي بترحاب ودعابات ساخرة:

مرحباً بعودة حضرة الأستاذ شوكن.. شرفتنا بعودتك بعد غيبة طويلة يا (خواجة)!

كان جدي في تلك الساعة يتأهب للخروج وقد حمل شبكته الصندوقية ذات العيون الضيقة، ومشى ناحية البوابة الكبيرة، وقد شمّر عن ذراعيه فظهر جلده داكناً في لون الفحم الأسود بعد أن لوّحته الشمس، أما شويا،

وبجسمها الممتلئ أكثر من ذي قبل، فقد طارت نحوي وتعلّقت بذراعي وصارت تهزها كأرجوحة.

أخيراً.. هي ذي العطلة قد أحضرتك وسطنا ثانية، اليوم دوري في نوبة العمل بالمطحن، لكني سأصحبك إلى شط النهر وأنت تصطاد القريدس.

قلت إني قررت بشكل نهائي، بل أقسمت، ألا أتناول منه شيئاً ولو بطرف لساني.

قالت شويا: فقط هذه المرة، لأجل خاطري، وبعدها أنت حر، لا تأكل منه، كما تريد.. حتى أنا أيضاً لن آكله مثلك.

وقال جدي: إذا قالوا إن الكلب لن يأكل حثالة الأرض، فيمكن أن أصدق هذا القول، أما إذا قيل لي إن اثنين نَهِمَين مثلكما لن يقربا القريدس، فهذا ما لن يدخل عقلي أبداً.

قلت: ولماذا تظلم الناس يا جدي.

وقالت شويا: حاضر.. متفقون على ذلك.. لكن كل ما نرجوه هو أن تسلفنا الشبكة لمدة يوم واحد فقط.

قال الجد: مستحيل.. من أبعد المستحيلات.

قالت شويا: تسلفها لنا يوماً واحداً فقط.. وسأهديك بالمقابل غليوناً نحاسياً.

قامت شويا ومدت يدها في كوة بالجدار والتقطت غليوناً، عبارة عن

أنبوبة نحاسية طولها نحو ثلث المتر، تنتهي في طرفها بمبسم للتدخين.

قالت: الغليون هذا غال جداً، وهو أنظف أنبوبة للتدخين يمكن أن يقتنيها المدخنون.. هه.. قل بسرعة.. تريده أم لا؟

مدّ يده وتناول الغليون، ثم قرّبه من عينه، ورفعه تجاه ضوء الشمس يتفحصّه في وضوح النهار الباهر.

قال: طيب.. لأجل خاطركم هذه المرة فقط. ثم إنه دس الغليون في حزامه، وقام واقفاً وتناول الشبكة المعلقة فوق قصبة البامبو، فأنزلها، قال: الزما الحذر والدقة في استخدامها، إياكما أن تنقطع وإلا فلن أسامحكما.

قالت شويا: هدئ قلبك.. وإذا مُسَّت الشبكة بأي أذى، فسأعطيك كل ما أهدانيه أبي من أطقم الفضة.

قال جدي: إذا كان الأمر هكذا، فأتمنى أن تثقباها مئة ثقب؛ وقالت شويا: انظر يا أخي كم هو شقي هذا الكهل.

قلت ضاحكاً: المثل السائر يقول (كل شيخ وغد، وكل شاة إذا كبرت تثعلبت، والأرنب العجوز لا تقدر أن تخطفه النسور).

قالت أمي: الناس إذا لقوا طعاماً يشبعهم، فلن يعود العجوز، مهما شاخ، عجوزاً، ولا الصغير، مهما طاش، صغيراً. أما جدي فقد أخذ يقول:

كل هذا بسبب الرجل الأجنبي موروويا.. هذه كلها أفاعيل روحه وتدبيرها.. خصوصاً هذه الأيام.. والغريب، أني كلما أغمضت عيني،

ولو للحظة، أراه واقفاً قدّامي.. يأتي بنعجته ويحلب لبنها الزنخ ويصبه علي وجهي.. وأجدني عاجزاً عن الحركة، وحتى عندما أحاول أن أتذكر شيئاً من النصوص المقدسة (النصوص الثلاثة عشر الكونفوشية) فإنها تهرب من رأسي.

قلت: أسمعت هذا يا شويا؟ حتى جدنا يحلم كتلك الأحلام.. لكنها أحلام لا تنبئ بمقدور.. فالسيد موررويا لن يعود حياً. وشويا قالت: وأنا كذلك أراه في منامي كثيراً هذه الأيام.. يجيئني ساحباً نعجة عجفاء تبرز منها عظامها.. ويظل يروح بها ويغدو لدى سد النهر.. ثم تظهر لي أمي واقفة وسط الغيطان، تناديني باسمي.

قلت: ذلك كله بسبب أفكارنا في اليقظة أو أحلام النهار؛ بدليل أنها لا تتحقق دائماً بعد ذلك. لا.. بل لأن رؤوسنا ليست كمثل دماغك في ضخامتها.. كذا قالت شويا.

حتى أنت تسخرين من ضخامة رأسي؟ ذاك ماقلت لها.

– وهــل أجرؤ على السخرية منك.. قم بنا نمشي.. قم سريعاً عسى أن نلحق بصيــد الليلة، فالقريدس يغزر هذه الأيــام. منذ لحظات كنت واقفة بجانب النهــر، فرأيت الماء معتكراً ولمحت أسراباً منــه تتقافز فتهيّج القاع وتثير الطين الراكد في الأعماق. كانت جدتي تميل بجسدها قريباً من جرة المــاء، بيدها مجرفة صغيرة تقلب بها الأرض، كأنهــا تريد أن تبذر شيئاً من الزرع، ففكرت أن أقصد إليها وأسألها عما تريد، فنهرتني شويا،

قالت: أقسمت عليك إلا تركتها وشأنها.. لقد أصبحت عصبية جداً، في الفترة الأخيرة، وأياً ما كان موضوع كلامك معها، فهي سرعان ما تتفل عليك وتشتمك.. كلما كبرت وشاخت ازداد مزاجها حدة.. هات الشبكة واسرع معي إلى شط النهر.

كانت الأزقة الضيقة غائمة تحت الدخان الكثيف، وكأن أحدهم أوقد ناراً في حطب، وفكرت أن أستوضح شويا في هذا الأمر، قالت: اسمع.. لا تقل أي شيء الآن.. فهذه عمة جارنا سوين تخلط وصفة شياندان (خلاصة أكسير الحياة).. وأي كلمة تقولها بالقرب من منزلهم ستفسد المفعول، وتجعل الثعالب تأتي ليلاً لتسرق كيس الدواء.

لا أعرف بالضبط من الذي رش كمية المياه الهائلة عند حافة النهر؛ لدرجة جعلت الماشي يكاد يتزحلق بسهولة. إذا لم يسند طوله جيداً، فحاولنا أن نصعد مطلع السد بكل جهدنا، فما كدنا نبلغ موطئاً نرى منه مياه النهر، حتى انزلقت أقدامنا وارتدت بنا للوراء، فجاهدنا ثانية للطلوع، ثم انزلقنا عائدين، وبقينا هكذا كلما تقدمنا لأعلى الطريق وثبَّتَتْ خطانا في موضع، زلقت أقدامنا ثانية فنكصنا إلى مزالق المسير، و لم ندر كم تعاقبت بنا تقلبات الدرب صعداً وزلقاً، حتى بلغنا، في النهاية، أعلى موطئ من سد النهر، ولما أردنا أن ننزل عن هذا المكان أقعينا كأننا نستعد للتزحلق على جليد، فما هو إلا أن انزلقنا سريعاً حتى أسفل المطلع، وكنت وقتئذ أشعر ببرودة الحصى والنباتات البرية الكثيفة بجانب النهر، وإذ جهّزنا الشبكة لإنزالها في الماء، فقد حاولنا أن نفك عقدها الملتفة،

لكنها كانت متداخلـة الخيوط، وكلما حللنا ربطةً تعقّدتْ أخريات، وفي وقـدة غضبـي أخذت ألعن جـدي.. ذاك الذي لا يدع فرصـة إلا ويضع العقد في طريقنا، بذنب أو بغيره. وقتها قالت شويا:

اهـدأ قليلاً ولا تشد الخيـوط قسراً، انظر.. هو ذا أنـت ولد ولا تقدر أن تحـلَّ عقدةً في شبكة صيد! نحّها عنك وهات أجرِّبْ أنا، وتأمل كيف أصنع.. أغمض عينيك قبل كل شيء قلت:

هأنذا أغمضتها. فلمـا واربت جفني وفتحتهما رأيت الشبكة الكبيرة مفرودة تحت النهار الذي انطرح بضوئه الساطع ملء اتساعها، والقريدس تحـت غمر النهر كان يتقلب ويدور في فوران النهر كأنه حبات سيل غامر تتقلـب في لجج المـوج بيد ألف شيطـان عابث. قلـت في شويا كلمة من عبارات الإطراء بلغت حد المغالاة، قالت:

هل طلب منك أحـد أن تتجاوز بي حدود الوصف؟ لك عليّ أن أتبع كلماتك، لو استطعت أن تتخذني لك بيتاً؛ قلت:

فماذا لو طلبتُ أن تعوي عواء كلب؟ قالت:

وحياتك أفعل.. أنصت.

وفي الحـال برقت عيناها كعيني كلب، وأنصبت أذنيها عالياً وهي تمط فمها، وطفقت تستنبح صوتها فيطاوعها النباح، وكان ثمة كلب يجاوبها عـواء وهو جاثم لـدى سد النهر، فكان العواء في صوتـه لا يستقيم إلا بما تكافـأ من نباحها، فصفقتُ لهـا إعجاباً وجعلت أربـت على مؤخرتها،

وهي تقول:

كـف عني يدك.. فسيوافيك وقتـك والوقت ابن براح. ثم كانت تميل بالشبكـة في الماء على مهل وتسقط بها في غماره، وتسحب بيديها الحبل خفيفـاً فتعود بجسدها إلى الوراء.. لانت في يدهـا الدّربة وبلغت بالمران الحد الفائق؛ فكانت الحركة موقوتة ببراعة وجمال وكثير كثير من الرشاقة. والشبكـة غاصت في المـاء عميقاً جداً، وعندما انشـق عن عيونها الموج، كانت تضطرب بكائنات البحر التي كانت تتزاحم لدى فتحاتها؛ قلت:

اجذبي لأعلى، ارفعي إليك الصيد، أريد أن أجد في فمي طعم القريدس ثانية. قالت:

انتظـر لا تعجل، سأدعك تأكل الليلة حتى الامتلاء بعد أن طال نهمك إليـه نصف زمان، لم تذق فيه قدر ما يكفيك، فما أشقاك حقاً.. خصوصاً والبحر ملـيء، والتقاط القشريات بالغ السهولة. ثـم إنها جذبت الشبكة وهي تدوس على الحامل الضخـم الغليظ، وترجع بجسمهـا كله للوراء وهي تجمع الخيط الرئيسي وتلفه دوائر دوائر؛ حتى برزت الشبكة بعيونها الضيقـة وهي تشد وراءها فقاعات هواء كثيفـة، سرعان ما انفثأت مادتها علـى سطح المـاء، وانكشفت الشبكـة مثلما تنكشف قـدر طبخ عامرة، فرأيت أعداداً لا حصر لها من الجمبري تضطرب وتحتشد في كومة هائلة، فتحـرّق حلقي شوقاً إليه، بل شمل التحـرّق كل موضع للهضم، بدءاً من المري والمعدة. قلت:

أسرعي برفع الشبكـة؛ فكلما جذبتها ارتفعت عالياً وأصبحت خارج الماء بكامل كتلتها.

وإذا بالصيـد ينساب متدفقاً في صفحة النهر ويسقط كله من الشبكة، فلا يبقى شيء منه بدخلها، فصُعقت إذ رأيت كل تلك الأعداد المهولة من جَنـى البحر قد سقطت دفعة واحدة، دون حتى أن يبقى منها شيء! قالت شويا:

المسألة واضحة وضوح الشمس، لا تحتاج لكثير شرح. فعيون الشكبة واسعة أكثر من اللازم. لكن، إذا كان الأمر كذلك، فكيف استطاع جدي أن يصطـاد بهـذه الشبكة نفسها كميـات من الصيـد؟ ردت شويا، وقد حمي غضبها بعض الشيء، ما أسهل أن توجّه أسئلتك إليّ، فلمن إذن أتجه بأسئلتي أنا!

قلت: انظري لنـا مخرجاً من هذه المشكلة بأي طريقة. قالت، ترى أي فكرة تصلح في هذا الموقف؟ أقـول لك.. اذهب فاقتطف بضع حشائش بريـة وارم بها في عيون الشبكة عسى أن تضيق فـلا ينسرب منها الصيد. فأقعيـت على الفـور أقتلع بعضاً مما نبت عند حافة المـاء وانتقيت ما لانت سيقانـه ونضرت به الخضـرة، فهالنـي أن رأيت جذوره مليئـة ببويضات النمـل الأبيض، ثم إذا أسراب نمل طالعة من جحورها، فتسلّقت حشودها أطرافي وتعلّقت بقدمي وساقي وذراعَيّ، وهززت قدمي علّني أنفضها عن جسمي، فكنت كلما هززت أطـرافي ازدادت الأسراب الزاحفة فاستولى علي الأسى، وقلت: مـاذا بيدي أن أفعل يا شويا.. انظري إلى ذلك النمل

الموبوء باللعنة، هو ذا يسعى لافتراسي!

قالــت شويا: ليس أمامك إلا الجــري بما أوتيت من سرعة.. بكل ما في عزمــك اجرِ.. ألقِ الآن بما في يدك من حشائشــ إلى قعر الشبكة ثم اسبق الريح عدْواً إلى سد النهر، واتفل بصاقك في وجه الشمس ثم أطلق بفمك الصفــير؛ لينفضّــ عنك النمل ولايعــود يكبّلك في إســاره. ففعلت مثلما نصحت لي، فصــرت أرمي بالنبت الأخضــر في الشبكة، وأخذت أجري تجاه سد النهر وأنا أتفل قبالة الريح وأصفّر صفيراً عالياً، فانزاح عني النمل وما عدت أجد له أثراً، والتفتّ خلفي فإذا شويا تلقي بالشبكة مرة أخرى إلى قاع النهر، فقلت لنفسي:

لــو لم تخرج هذه المرة من قلب الماء، ولو بقشرية واحدة من القريدس، فلــن أعود لأجرب الصيد عند سد النهر، ولا عزمت إلا على المضي عائداً إلى البيت أستذكر دروسي.

لكنها راحت تمازحني وتتصنع وجه المرأة الكبيرة، ابنة الزمن الضروس، تنظر لي كأني ابن عمرها، تقول:

تعــال يا شوكــن.. لا تأس على ما فات، هأنــا ذي أضمن لك أن تأتي الشبكــة، هذه المرة، بصيد وافر، فإن لم تــأت بشيء فسوف أرمي بنفسي في خضم النهر وأموت غرقاً. قلت:

هــل ينقصنا هذا الكلام؟ إذ حتى لو افترضنا أن الشبكة خرجت خالية مــن القاع، فلن أدعك تغرقين نفسك، فما لحياتي بعد موتك؟ هو ذا أقول

لـك الآن كلمة خفيضة الوقع وأقسم عليك ألا يثور غضبك: ألسنا إذا تزوجنا، يجيئنا أطفال يجمعون في خصالهم بين الذكاء والجمال؟ أليس من المضمون أن ينتج عن اندماج صفاتك المهجنة ورأسي الضخم أولاد أذكياء يمتازون بمسحة من جمال؟

أخذت تقهقه عالياً، قالت: هجين النبات حصد غزير الجودة.. وهجين الإنسان نتاج وافر الجمال (كذا يقولون). جمعت الخيط وهي تضحك، وكانت العيون وافرة الصيد تضطرب بملء أثقال، ولما فارقت الشبكة الماء، رأيت كميات من القريدس قد تعلّقت بالنباتات المنبثة في قاعها، وكانت غائصة فيها حتى كأن الخضرة قد فارقت أهداب الحشائش، ثم انثنى الذراع الذي يحمل الشبكة؛ كمثل قوس انثنى، وصار أدنى إلى أن ينقصف، فأسرعت يدها تنقل حمولة الذراع إلى ما بين سد النهر وخضم الماء، لدى الشط الرملي المنبسط، وكنت أهتف جذلاً وأندفع صوب الصيد فأجمع منه ملء كفوفي وأحشو جوفي، واليد بقنصها مثقلة والقلب طافر فرحاً فوق فرح. كنت أرتعش، يا للسماء، من السعادة الغامرة.. أرتعش بجنازير مصلصلة وسلاسل تصطفق حول حلقي وتدور حول رأسي دوائر، وجُمْعُ شعر رأسي الناعم القصير، بذؤابات صفراء تلذعه قشعريرة كأنها تيار كهرباء يتخلل ثنايا دماغي. ألتقم طعام البحر فيحتشد في حلقي وتطفر عيني بدموع، وأسألها لماذا لاتأكل هي الأخرى، فتكتفي بالنظر نحوي باكية.

أقول: مدّي يدك يا شويا.. واحفني قدر الكف واملئي حلقك. لكنها

لا تقرب شيئاً، فأقبض على قشريات فيها الروح تتقلب بنبض حياة وأحشو بــه فمها، قسراً، فتتراجع وينثني جذعهــا، ويعلو صوت نحيبها حتى تتقيأ طعامهــا الذي طاب لها آنفــاً، ويسقط القريدس في مــاء النهر مختلطاً بأثر دمــاء، فيبقى في حال السكون ثواني معــدودة، ثم ينتفض ويتفرق في الماء جماعات شتّى، ولا يلبث أن يختفي عن الأنظار تماماً، ولا يبقى منه سوى دوامات كمثل الغمازات الطفيفة في وجه النهر.

قلت: مالك؟ ماذا جرى لك الساعة؟

قالــت: ما عاد يستقر شيء في جوفي منذ أن لجأت إلى تكديس معدتي بالحبوب المسروقة واجترارها مراراً، فوصلت بي الحال الآن، إلى أن أصبح الطعــام يندلق من معدتي بمجرد أن أميل برأسي أو أفتح فمي على اتساعه، دون حاجة على الإطلاق إلى استثارة حلقي بالعصا الخشبية.

اغتممــتُ واشتملني حزن، فما العمــل إذن؟ وكيف إذا بقيت هكذا؟ أنتركك تهلكين جوعاً؟ وما هي إلا أن انتابتني نوبة بكاء، وتقلّبت معدتي وطفــق القريدس ينثني ويــدور ويقبض على جدار أمعائــي حتى جاشت نفســي، ومــا كدت أميــل برأسي حتــى انفتحت طاقة فمــي غصباً عني، وتدفقــت من جوفي قشريات البحر أسراباً وراء أسراب، تتقافز وتندلق من فمــي فتسقط في صفحة الماء تشوبها خيوط دماء، بقيتْ كذلك فوق وجه النهر ساكنة لثوان ثم هاجت بها روحها فراحت تهرع طافرة في كل اتجاه، وغلبني القيء فأفرغت من حلقي ما طعمته في يومي هذا وفيما انقضى من سابــق الأيام، ألقيت به كلــه في خضم بحر جارٍ، لكن انظر.. هل صحيح

أنهــا كانت قشريــات طعمتها في أيام خــوال؟ نعم، فقد رأيتنــي ألفظ منه أسراباً لوّحته مياه فائرة تغلي، فاستحال لونه إلى الحمرة الناضجة، فكان إذ يسقط في النهر تلقفه الأسماك السابحة في غمار الجريان. ووقتئذ، انقطع القــيء فزالت عن جسمــي أثقاله وافتضّ رأسي خواءٌ مــا رأيت له من قبل مثيلاً، حتى تهيّأ لي أن دفقة رياح قد تطويني وتلقي بي في خمود الزوابع. وهتفت شويــا بي: تعال معي أمضِ بك إلى البيــت. فطوّحنا بالشبكة من أيدينــا وصرنا نمشي صُعُداً، وهي تَتأبط ذراعي، وكنا نغذ السير كأنا نطير، ومررنــا بالشجر والبيوت، نمــرق مروق البرق عبر الــدروب، حتى باب بيتنــا مرقنا به، كمثل سهــم طائر طرنا ووراءنا كانت تعــدو أمّنا وتنادي، تلهــث كانت وهــي تدعونا بأسمائنــا، ولم يكن في مقدورنــا أن نتريث، وبقــي الوقوف ضرباً من محــال. ثمة جسدان ذوب عناق، فكنت أجد في رهافة الندى الرطب فوق جلدها نداي، ومرارة العشب الطازج في فمها أيقظــت لي ذكري ما انقضى وفات؛ كل ما انطوى طي الرقاد وتوارى في رحيــل الأيام عاد وتجلى أمامي، أُبصره كأنــه مشهد تمثيلي، وكأنني أعيش أدواره وأحنــق على كل صاحب دورٍ ارتكب فــوق المسرح ولو هفوة أو سقطة من نص الحوار، أو حتى حركة قدم في غير موضعها، أو تعابير وجه أفســدت روعة المشهد، وكل ما لم ينفلت من ربقة الذكرى، وكانت عيني وأذني عليه رقيباً يحصي الهفوات...

دقت ساعة الفجر، فاعتدلت أريد الوقوف، وانتبهت إلى صرير الفراش العلوي، وداخلتني الحيرة فمددت يدي أتحسس خصري، فإذا كتلة لزجة لصق جسمي قد انطرحت مع البلل والبرد.

حملت الحقيبة فوق ظهري وغادرت المدرسة دون أن ألقي على أحد تحية وداع، وقلت لنفسي إني ماض كي أدخل بشويا وأتخذها امرأتي، وكل ما دون ذلك مجرد عبث وترّهات.

فوق سد النهر تحلقت مجموعة من الواقفين، ومن بين جموع محتشدة تردد بكاء موجع، وكان ثمة أم مرتاعة، نحيبها كمثل ثغاء شاة. فشققت طريقي وسط زحام المتحلّقين، ورأيت بعيني رأسي جثمان شويا مطروحاً فوق حصيرة وقد انتفخ لكثرة مابقي في مياه النهر.

قالت واحدة من الناس: يتهيّأ لي أن لها الآن ثلاثة أشهر.. ثلاثة أشهر مرت عليها، بالتمام.

بكين في 1992

قـراءة في الأدب الصيني

لـو كان صحيـحاً أن بـراعـة الروائـي الصينـي مويـان في المزج بين الواقعية السحرية والحكايات الغرائبية المعهودة في التراث الصيني القديم، هي المسوّغ لحصوله على جائزة نوبل في الأدب، إذن لاستحقها معه بالتساوي عدد من أهم كتاب القصة في جيل ما يُعرف بـ "أدب البحث عن الجذور".. وهؤلاء كثيرون جداً، منهم: ليو سولا، شو شين، تسان شيو، جاهيداوا، هونفن، يو هوا، سوتون، مايوان (قد يقترب هذا الأخير في نطقه مع مويان، أديب نوبل، فاعرفه) والأساس الإبداعي عندهم جميعاً يقوم على فكرة الانتصار لطاقات الحياة البدائية، وكشف الجوهر العبثي للإنسان، تنديداً بضعفه وزيف ثقافته الحديثة. والكتابة الروائية عند كثير منهم تجسِّدُ إحساساً بعبث الوجود، لكن منابع إلهامهم لم تأت مباشرة من نماذج غربية الطابع؛ صحيح أنهم استفادوا من الترجمات والمدارس النقدية في الغرب، لكنها استفادة دون نقل! فلم تكن القصة، حتى في التراث الفكري والأدبي الصيني القديم محل احتفاء أو استحقاق

لجدارة، وكثيراً ما اعتبرتها الكونفوشية مجرد هزل وثرثرة صبيانية (كذا.. وبمنطوقها القديم والباقي حتى اليوم، في الصينية: شياو شو، أي: الكلام التافه، الحديث الفارغ) ولم يكن للكتابة الروائية أن تحتل مكانة معتبرة إلا بما اشتُقتْ من الأساطير القديمة، أقدم واقع سحري نهلت منه أجيال الكتابة في أوائل الثمانينيات،حتى قبل أن تجري أقلام المترجمين بنقل نصوص غارثيا ماركيز؛ ذلك أن الساحة الأدبية كانت وقتئذ تبحث عن يقين ضاع منها إبان الثورة الثقافية.. لم يكن ثمة أساتذة (هذه المرة حقاً وفعلاً.. دع عنك ماكان يقوله أستاذنا محمد حافظ رجب، تحت ظروف مختلفة، بشأن أجيالنا الأدبية في ستينيات الأدب العربي بمصر) فكانت العودة إلى الجذور الثقافية، حتى بمحتواها المتضمن لشرائح عريضة ممتدة من التراث الكونفوشي إلى الفولكلوريات الشعبية، فتشكلت ملامح يقين بالأسطورة منسجمة مع تقاليد باقية في المواريث، وكانت "الحداثة" هي الكلمة المفتاح في فهم اتجاهات الإبداع، منذ أوائل القرن العشرين، أو هكذا قد يقال، ثم إن تاريخ الحداثة في الصين يبدأ أيضاً مع حد زمني قاطع بين زمن قديم انتهى وفات، وعصر جديد بدأ يشق طريقه إليها فيما سمي بحركة الرابع من مايو 1919.

لكي نحدد موقع مويان كروائي صيني متميز، ونقف على قيمة إبداعه، من المفيد أن نستحضر أجواء المرحلة الأدبية التي ينتمي إليها، ونعيّن صلتها بمجمل حلقات التطور في مسيرة الأدب الصيني المعاصر.

نستطيع أن نقول، بدرجة كبيرة من الثقة، مدعومة بأسانيد مؤرخي

الأدب واتفاق معظم مدارس النقد الأدبي، أن مسيرة الأدب الصيني المعاصر بدأت في الصين الأم مع تأسيس الجمهورية في عام 1949 (والمعاصَرة في الأدب الصيني جزء من اتجاه التحديث الأدبي الذي بدأ، كما أسلفت، في 1919) حيث تبدأ المرحلة الأولى من تاريخ الأدب المعاصر (أتكلم عن محتواه في الإبداع القصصي) مع أول الخمسينيات، وتعرف في اصطلاح تاريخ النقد باسم "مرحلة السبعة عشر عاماً" وسيقترب فيها المبدعون من معالجة التناقضات الاجتماعية الكبرى، وتثمر محاولاتهم أعمالاً ناجحة، كرّست لهم وضعاً فريداً في ساحة الكتابة الروائية؛ فعرف الناس كتّاباً مثل: رو جي جوان، لو ون فو، وانغ منغ (سيتولى وزارة الثقافة فيما بعد، ويؤسس لاتجاه تيار الوعي في الرواية الصينية، مطلع الثمانينيات) في هذه المرحلة ينجح الإبداع الروائي في أن يرصد التغيرات الحياتية السريعة، جنباً إلى جنب مع مظاهر الحياة النضالية للثورة الاشتراكية، وفصول رائعة من تجارب بلد في خضم تحولاتٍ بالعمل والبناء، و لم يغب عن باله تسجيل تناقضات البيئة الاجتماعية في حينها، وقد شهدت مرحة السبعة عشر عاماً فترتين تميزتا بالحيوية الشديدة:

- فترة ما قبل العام 1956، حيث سيكتب الروائي "جاو شو لي" عن أحوال الريف الصيني (قبل أن يولد مويان بنحو أربعة أعوام) ويقدم روائع القصة الصينية المعاصرة: تدوين الاسماء، قصة أفسدها المونتاج، زوايا الحب المنسية، العم شوماو وبناته، أهل المعجزات ينزلون القرية، على هامش سيرة الغرام، تغييرات جبلية؛ وكلها كانت تأخذ بمنحىً واقعي، أسهمت في تعميقه كتابات

مبدعين آخرين ساروا على نفس المنوال، مثل: ما فنغ، ولي جون، وجوليبو.. فهؤلاء جميعاً أخذوا موضوعاتهم من قلب الريف الصيني، وبرغم ما حققوه من انجازات رائعة، فقد كان يؤخذ على أعمالهم عجزها عن نحت صور بطولية في زمنٍ شهد ملاحمَ أقدارٍ ريفية، لم ير التاريخ الصيني مثيلها منذ زمان، مع ضعف في إبراز العالم الداخلي المعقد للشخصيات وترهل في أساليب السرد.

أما ثانية الفترات فيُقصد بها بداية الستينيات، حيث سادت أجواء استقرار عام، برغم الظروف الاقتصادية الصعبة، وتمكن السرد الروائي من أن يلمح الواقع الموضوعي لمجتمع يحفل بتحولات ويموج بأحوال. وهنا سيبرز دور قاوِ شياو شنغ (الروائي العظيم الذي سيُغفَل ذكره طويلاً، دون أن ينكر دوره!) حيث سيشترك مع عدد من الكتاب، سنة 1957 في تأسيس مطبوعة (الاستقصائيون)، لكنْ يتم استبعادهم من الساحة الأدبية، على خلفية اتهام بأخطاء سياسية، وبعد عشرين عاماً يعود قاو شياو شنغ، بقصة (العم شون يبني غرفة)، فتبرز براعته في رسم العالم النفسي لشخصياته وتصوير تقلباتهم عبر أسلوب في الكتابة كان "يمزج حقا بين أساليب الكتابة الروائية الصينية التقليدية، ومفاهيم الكتابة الحديثة" [قبل أن تصدر لجنة التحكيم السويدية قرار منح الجائزة لـ مويان، بتقدير نفس القيمة، وبنصوص قريبة من أحكامها، رغم صدورها عن أقلام النقاد الصينيين، للكاتب "قاو شينغ شنغ" منذ نحو خمسين عاماً تقريباً] حتى إن كتابات نقدية كانت تقدر له دوراً مساوياً لأولئك

الذين خرج الأدب الصيني الحديث من جعبتهم، مثل لوشون وجاوشولي.

على مدى مرحلة السبعة عشر عاماً، بلغ الإنتاج القصصي زهاء ثلاثمئة رواية، ثم تلتها المرحلة الثانية لتبدأ في عام 1966 وتستمر نحو عشر سنوات هي كل الفترة التي استغرقتها سنوات ماسمي بـ"**الثورة الثقافية الكبرى**"، وهي الفترة التي انتُقصت قيمة إسهامها في مواصلة تقاليد الكتابة الجديدة وتطوير سمات إبداعية جرى اكتشافها في المرحلة السابقة، بل وُصمت بأنها.. "أصابت التصورات الأدبية بالجمود والانغلاق، واتخذت موقفاً مناقضاً من ضرورة تطوير الطابع الجمالي للتنوع الأدبي وفهم دواعيه، بل عملت على تسييس الأدب، بصورة متزايدة، عبر رؤى انغلاقية أحادية راحت تفرض على الابداع (اقرأ: الروائي) مطالبها السطحية إيعازاً باصطناع أدوار ووظائف سياسية، مما باعد بينها وبين مفاهيم المسعى الثقافي الذي اضطلعت بأعبائه وعملت تحت رايته، فأفرغت الأدب من مضمونه لصالح تعبئة إيديولوجية، وسلبته وجوده المستقل وتفرده وخصوصية طابعه، حتى صار بعضاً من (سياسة) أدبية، أو أدب (سياسي).. ذلك هو ما آلت إليه أحوال الأدب أيام الثورة الثقافية.. أو هكذا يقولون"!

ولأنه لا يمكن تقييم آثار الثورة الثقافية بموضوعية كاملة، حتى اليوم، فلا يمكن الوقوف عند جانب واحد من تقدير أحوال الكتابة الروائية في زمانها؛ فهناك أيضاً (وعن نفس المصدر الذي أنقل للقارئ جانباً من نتائج

أبحاثه.. نصاً حرفياً) رأي آخر يناظر قائلاً: "إن اللون السياسي البارز كان أحد السمات الفائقة التي اتضحت في ملامح الكتابة الأدبية؛ ذلك أن انتصار الثورة الشعبية هو الذي حشد المبدعين صوب تجمّع أدبي التأمت به أهدافهم، واتضحت عنده رؤاهم، ونضجت في خضمه أحاسيسهم بالمسؤولية الاجتماعية، وتلك نقلة تقدمية بالتأكيد، وأمام تجربة انتصار تاريخي وواقع اجتماعي جديد، انبعثت طاقات الحماس السياسي لدى الكتاب، فمضوا مدفوعين بإرادة الواجب الطوعي لاستقصاء ملامح الحياة الاجتماعية من وجهة سياسية شابة ومنتصرة، حتى أن عدداً من المبدعين القدامى ألقى جانباً بمساره الفكري لينخرط وسط حياة مختلفة وجماهير جديدة وتجربة حياة بطولية واعدة بمداخل إبداع لاحدود لها، وكان زخم الحركة السياسية الاجتماعية بواقعها الهائل يُلهم غير قليل من الأقلام المبدعة؛ حتى خاضت تجربة الكتابة في موضوعات ذات طابع سياسي التحاماً بوسائل وأغراض التعبير عن أحوال التغيير الكبرى السائرة قدماً."(*)

المرحلة الثالثة والأخيرة في تاريخ الأدب الصيني، بدأت عام 1979 ويطلق عليها اصطلاحاً "**الفترة الأدبية الجديدة**" وهي التي ستشهد ظهور مويان ضمن أجيال شابة. وكانت اضطرابات السنوات العشر السابقة إبان الثورة الثقافية قد شكلت اتجاهاً داعياً للخلاص الفكري، وتبلورت عوامل تدفع نحو تبديل ملامح الابداع القصصي، منها: انقلاب البناء

(*) "Dang dai zhong guo wen xue gai gaun"، "الأدب الصيني المعاصر" (بالصينية)، جانغ تشون وآخرون، عن Beijing chu ban she، بكين: 1986 ص 3.

الاجتماعي، اختلاف الحالة الذهنيــة والنفسية عند الناس، ظهور تيارات فكرية جديدة، بـروز اتجاهات جديدة على مختلف الأصعدة؛ أهمها -في الكتابــة الروائية- هـو التحول من القالب السياســي إلى الاجتماعي، من الوعظــي الأحادي إلى الجمالي المتنوع، من النمــط الأساسي القاعدي إلى الخلــق الإبداعي المستقل؛ مما أتــاح **"للفترة الجديــدة"**، بتياراتها في التحرر الفكــري والتغيير الاجتماعــي، أن تحــدث انطلاقة أدبيــة تحررية، هيأت الظـروف لخلق بيئــة مواتية لإبداع متجــدد؛ فتشكلت عــدة تيارات في الإبــداع الروائــي، تـوالى ظهورها من نهايــة السبعينيات حتــى منتصف الثمانينيــات تقريباً، منها: أدب الجــراح، أدب المراجعة، أدب الإصلاح، أدب البحث عن الجذور. كان أدب الجراح مع أدب المراجعة قد.. **"اقتحم كلاهما المنطقة المحرمة في الموضوعات الأدبية، وعملا على تكسير القالب الفكري القــديم"** (هنا، لاحظ جيداً أنها بداية العودة (قل الدعوة مجدداً) إلى تقاليد الكتابــة الأدبية التي دعت إليها حركة الرابع من مايو 1919.. فقد كانت تلــك هي أهدافها بعينها، وإن اختلف الزمن والظروف!) وظهرت أجيال من المبدعين -الشبان علــى الغالب-انتقلت بوجهة الإبداع من الاهتمام بالأطــر الخارجيــة للحياة الاجتماعيــة (أي كتابــة الحركــة الحياتية ذاتها وملامــح سيرورتها ومدى ارتبــاط وجود الشخصيــات بالحركة والمسار وضرورات الأحداث) إلى كتابة مظاهر الحياة عبر تشكلها بشروط أحوالها الداخلية، في أجوائها وبدلالاتها المتفردة (أي تعيين مسار أقدارها، ومدى ارتبــاط مصير الفرد بمجتمعه، حيث انتقلت بؤرة الاهتمام من المجتمع إلى الإنســان الفرد). جيل الفترة الجديدة اختلف تماماً عن جيل الخمسينيات،

إذ لم تكــن بداية الطريق أمامه نحــو الأدب، تفرض الامتثال لقالب أدبي؛ ذلــك أن مــا قدمته حركة التاريخ من محتويات غنيــة في واقعها وتطورها، مــع أوائــل الثمانينيات في الصــين، منحت أدب الفــترة الجديدة جوانب متعــددة مــن الوعي بواقــع مختلف يفرضــ المراجعة والتصحيــح، ويلمح اتجاهات تطور الحياة الاجتماعية ويدفع، من ثم، لإحداث نقلة في الوعي الجمالي، فاتسعت رؤية المبدعين تجاه عالم بأسره.. قل إنه انقلاب تجديدي إذن، لكــن في ساحة الابداع الأدبي بخاصــة، وتحديداً في منطقة الكتابة الروائيــة، صحيح أن بعضاً مــن موضوعات القصة بقــي متشبثاً بالقالب والشخصيات والمنحى القديم، لكــن الاتجاه الرئيسي والسمات الأساسية كانــت لصالح حساسية جديدة، وخصوصاً في الكتابة القصصية القصيرة التــي اكتسبت بأساليبها الفنية وجوداً أكــثر وضوحاً وثراء من الرواية، في الفــترة مــن 1979 إلى 1985، وكان وانغ منغ، ورو جــي جوان يشقان النهر الأدبي بموجة جمالية جديــدة، مغايرة لتيار أدب الجراح والمراجعة، فأدخــلا التجريب في الخيال والرمزية والكوميديــا السوداء، بإضافة "تيار الوعــي" إلى أساليــب الكتابــة الصينية، ثــم تدفقت وراءهمــا موجة أكثر عنفوانــاً منحت سلطــة التقييم الأدبــي كاملة للقــارئ، وكان المحك في جدية هذا المنحى يأتي مباشرة –وعبر أشياء كثيرة– من تلك الكتابات التي استلهمــت مشاهد الريف الصيني الحديــث، والمدن العمرانية والجامعات والمصانع، أي باختصار، كل المواقع التي تُبرز ملامح الحداثة (مرة أخرى، استلهاماً لمبادئ حركة التحديث "الرابع من مايو").

لكن لنا هنا ملحوظة مهمة للغاية، وعلى مسؤولية كاتب هذه الكلمات

ليس غير، وهي أن التجريب في تيار الوعي على يد وانغ منغ وآخرين غيره، شأنه شأن غيره من اتجاهات نقدية وتيارات فكرية مأخوذة من مصادر غير صينية، كانت (وفقط) في سطحها القشري محل استفادة – كمعطى شكلي– باعتبارها رافعة لعناصر تجديد صينية في روحها وجذورها، فقد ساد تيار الوعي بطابعه الشكلي وسماته المظهرية دون فحواه الفلسفي، إذ تمت معالجته وفق مزاج صيني تقليدي؛ لذا فقد أطلقت عليه مدارس النقد الأدبي "تيار الوعي الشرقي" (هذه، ليست من عنديات كاتب الدراسة) وكانت تسمي قصص وانغ منغ، وروايات الكاتبة تسونغ بو بـ"تيار الوعي الصيني" باعتبار أن الكتابة هنا كانت تستلهم مذاقاً محلياً يستبعد العبث من طياته. كانت موجة الرواية تضم أسماء: ليو سولا، شو شين، تسان شيو، مويان، هونفن، يو هوا، سو تون، كا يفي؛ وكلهم يمثلون الحداثة، ذات الطابع الصيني (كذا يقال)، ولو أن كتاباتهم سواء في اتجاه موضوعاتها أو أدواتها السردية أو أساليبها الفنية بعيدة المدى عن الطابع الجوهري لأدب الحداثة، وربما مع بدء دخول مفاهيم جديدة إلى ساحة النقد، مع حركة الترجمة النشطة والمتزايدة، ظهر تأثير عاجل لآثار مابعد الحداثة، عبر نصوص مترجمة، فتشكل، بالتوازي، اتجاه أدبي (وفلسفي) يبحث عن قيمة ومعنى حياة الإنسان من وجوده الذاتي، ولما كانت أجواء الكتابة فيما بعد الثورة الثقافية يسيطر عليها مسعى البحث عن الحقائق وسط غابات اللامعقول، حيث الأجيال بلا أب أو أساتذة أو حبل أمومي سري يربطها بالتاريخ والتقاليد الثقافية، ولم يكن ثمة بيت عائلة صيني يرجعون إليه، فقد اضطرت جحافل المبدعين الشبان إلى الهرب بعيداً

في أغوار الماضي السحيق (على المستوى النفسي) أو زوايا اقتراب مباشر من غرائبيات الفولكلور، أو حتى لدى مساقط الأنهار، والقرى البعيدة والتلال، بحثاً عن علائق تربطهم بجذور حياة. .

وبالتالي، فقد اتضحت ملامح موجة أدبية جديدة في عام 1985، بدت غريبة على أجواء الكتابة الروائية، أطلق عليها "**الموجة الجديدة**" غمرت الساحة وشكلت اتجاهاً جمالياً مختلفاً عن الواقعية التقليدية، ذلك هو "**أدب البحث عن الجذور**" كان من روادها: هان شاوكون، آ تشنغ، جنغ وانلون، ليو سولان، مو يان؛ حيث شقوا لأنفسهم مرحلة مختلفة في الوعي الجمالي الروائي، تنأى عن الوضوح والخط السردي الواحد، وأهملت القالب الروائي المكثّف المكتمل الأركان، فأخذت بنصيب وافر من الدلالة الفلسفية الحديثة، وبنصيب أعظم من التلوين الأسطوري، استقصاء للاوعي الضمير الجمعي وأعماقه غير العقلانية (تأثير الاتجاهات السيكولوجية ملحوظ بقوة) في منحى يكاد يتناقض مع منظومة الإبداع القصصي عموماً.

أحد مجالات "البحث عن الجذور" راح يتخذ موضوعاته من الحياة البدائية، بينما انصب اتجاه آخر على الاهتمام بثيمات الكتابة عن القوميات الصينية وقبائل الأحراش والمراعي وقوافل الخيول؛ أبرز الأعمال في هذا المجال، رواية "رومانسية ملء الأرض والسماء" للكاتب آتشنغ؛ أما السمة الأخرى لهذا الاتجاه فتتمثل في نهل موضوعاته من التراث الصيني القديم، بما فيه المأثور الشعبي، بما تضافر معه من مواريث التقاليد الكونفوشية

والطاويـة. قصص هـذا الجيل كانت تجسـد في معظمها إحساساً بعبثية الوجـود، لكنها كانت تختلـف عما يقابلها في الغـرب؛ إذ كان الكتاب الصينيـون يحاولون التمرد على ما يعترض طرقهم الخاصة في التعبير عن ذواتهـم.. ومن ثُمَّ كانت محاولتهم الدائبـة في استكشاف أشكال جديدة للسرد، تقوم على تنـوع أساليب الحكي، وهكذا نجد عند مويان وهونفن ويـو هوا، وسو تـون، وكايفي —وكلهـم يشكلون اتجـاه مابعد الحداثة— سمـات تتجـاوز المنحى الحداثـي، خصوصـاً وقد تحول مرتكـز الكتابة عندهم من "مـاذا نكتب؟" إلى "كيف نكتب؟" حيث وضعوا القصّ فوق القصة، في انقلاب جذري على أساليب ورؤى الإبداع الروائي الصيني، وحسـب تعبير إحدى القراءات النقديـة المعتبرة لإنتاجهم.. "فإن ذلك قد يمثـل نقلة نوعية في الوعي بنمط جديد في الكتابة، ولو أن خلخلة الحدث الحياتي أضعفت دلالة الواقـع الاجتماعي في الرواية، وهو ما أتاح لإنجاز الحداثـة وما بعدهـا أن يسهم في تحطيـم جمود القالب الادبـي؛ ليفسح الطريـق أمـام طاقات الكتابـة ويضيف مـدداً لمجموع السمـات اللغوية والحس الروائي."

تأثـرت عبثيـة هذا الجيل من الكتـاب، بفلسفة الحياة عنـد برغسون، وتحليلات فرويد؛ وأبرز من يمثلون هذا التأثر اثنان: هونفن، ومويان؛ علماً بـأن الأساس في إبداعهم يقوم، في بعضه، على فكرة الانتصار لطاقةالحياة البدائية (الليبيدية) وكشف الجوهر العبثي للانسان.

بهذه الخلفية دخل مويان إلى الساحة الأدبية، لأول مرة، عام 1981

عندما نشرت له مجلة "lian Chi" قصة بعنوان "قطرات مطر في ليلة ربيعية"، وكان وقتها يقضي مدة الخدمة العسكرية بمدينة باوآن بمقاطعة "هيبي"؛ قبل ذلك بعدة سنوات كان قد كتب عدة مسودات لقصص قصيرة وأرسلها لمطبوعات أدبية مختلفة، لكنها لم تنشر. ولطالما كان يؤرقه الحنين إلى قريته "كاومي" بإقليم شاندونغ شمال شرق الصين (حيث ولد في 1955) وذلك على الرغم من سنوات طفولته البائسة في أجواء فقيرة لم تتح له سوى القليل من فرص التعلم والقراءة،حتى إذا فرغ من قراءة أعداد الكتب الضئيلة، لم يجد إلا قاموس "شينهوا" فأخذ يطالعه مراراً ويحفظ بعض مواده! ضاقت سبل العيش به حتى عمل أجيراً في مصنع للزيوت وهو شاب في الثامنة عشر من عمره (ضائقته لن تنتهي حتى بعد حصوله على المكافأة النقدية لجائزة نوبل؛ إذ لن تسمح له إلا بشراء ما لا يزيد عن مئة وعشرين متراً فقط من أرض بناء لا تكاد تكفي مساحة فيللا كان يحلم بها!). عمل لفترة في رئاسة أركان جيش التحرير الشعبي (قسم التوجيه السياسي) والتحق في 1984 بالقسم الأدبي بكلية الفنون الجميلة التابعة للجيش الصيني، وفي 1985 نشر روايته "الفجل الأحمر"، ثم انتهى من رواية "الذرة الرفيعة الحمراء" في 1986، لكن كتابة الرواية كانت تتطلب وعياً واطلاعاً مدروساً؛ فبادر إلى مواصلة دراساته التكميلية ملتحقاً بمعهد لوشون للدراسات الأدبية في 1989، وفي تلك السنة نفسها كانت مجلة "رنمين ونشيو" (أدب الشعب) قد أجرت استطلاعاً بين القراء حول معدل القراءة التي يحظى بها الأدباء الشبان، ففاز بالمركز الأول باعتباره "الكاتب الحاصل على أكبر نسبة قراءة". لم يتخل عن أمله في فرصة تعليم

راق، وواصل دراساته العليا في جامعة "شيفان" بكين (إحدى المؤسسات التعليمية المرموقة حينئذ).

كان لوشون، عميد الأدب الصيني الحديث، يقول في دراسة مهمة له عن تاريخ القصة الصينية إن أهم ملمحين يلفتان نظر الدارس المدقق في أحوال الرواية الصينية، على مرّ التاريخ، هما: "النكوص".. أي تشبث مسار الإبداع بنمط أو مثال أو أسلوب قصصي انتهى زمنه، و"الدمج"، فأنت تجد لوناً من الكتابة القصصية قد عفا عليه الزمن لكنه يعاود الظهور، تحت قناع مختلف، بل يوجد لنفسه طرائق خاصة يتخلل بها نسيج الكتابة القائمة ويندمج في طياتها منسجماً مع ذائقة العصر الجمالية.. شيء من هذا، تقريباً، نلحظه في رؤية مويان للاتجاه التاريخي في الرواية (خصوصاً في كتابات جيل البحث عن الجذور، وهو يعيد كتابة فصول منسية من تاريخ قديم بحسبانه جذراً ملهماً لاستقصاء الحقائق) حيث يعتبر أن القصة التاريخية الجديدة ليست نفياً لتراث القصة الثورية -كما عهدناها في المراحل السابقة- بل هي استمرار طبيعي لها، مؤكداً أن إبداعاته الأولى تأثرت بالقصة الثورية؛ ذلك أن قصة "القنبيط المرّ" للكاتب "فنغ دين" Feng De ying تركت آثاراً عميقة في كتابته لرواية "الذرة الرفيعة الحمراء"، فبعد قراءته لها في شبابه أحس أن وصفها للحب واقعي جداً ووحشي للغاية أيضاً، فلما قرأها ثانية تأكد من أن هذه الكتابة لايبدعها إلا عبقري رواية، وأضاف أن جوانب من وصف مشاهد الحرب في روايته المشار إليها تكاد تتماثل مع أسلوب قصة القنبيط المر في كثير من فصولها، وهي رواية ثورية بمعنى الكلمة، ومع ذلك فقد وجد في الكثير من وقائعها

عناصر تقبل الاندماج في أسلوبه الإبداعي.

مويان جزء بإبداعه وعبقريته من مرحلة أدبية تعرف بـ"المعاصرة" (ولو أني أجد من بين الدراسات، تحت يدي، رسالة دكتوراه بالصينية غير منشورة، يؤكد فيها الباحث الصيني المجتهد خطل الرأي القائل بـ"المعاصرة" على نحو مطلق في اصطلاحات النقد الأدبي.. "فالمعاصرة" فكرة أدبية نقدية تلاحق خطوات الحياة، وليست مجرد توصيف جاهز لمرحلة ضمن تاريخ أدبي؛ فلكل زمن تعريفه المحدد والخاص لأدبه "المعاصر"؛ تلك ليست صفة مطلقة، بل مرهونة بخصائص موقعية في زمن معلوم، ولمنطقة ثقافية محددة..):

ما علينا، لو قلنا إن مويان –بأي معنىً– أحد أبناء جيل له سماته المشتركة وموقعه وتاريخه، فالفكرة أن الكثير من الدوائر النقدية (غير الناضجة)، بحق، وللغرابة؛ قد رأت في استفادة كاتب صيني من عنصر جمالي عالمي مجرد نقل تام لبضاعة جاهزة ومعتبرة؛ فالذهنية الإبداعية عند مويان أروع كثيراً من إيحاءات الفهم حسب هذا التقييم؛ فإبداعه يملك ملامح وسمات متفردة بشكل واضح، وهو إذ يحاول مثلاً أن يجرب تقليد كاتب من أمريكا اللاتينية متأثراً بكتابة (سحرية)، فهو يلجأ، على غير وعي أحياناً، إلى النهل من معين الحكايات الشعبية، وتبقى "السمة السحرية" بالنسبة له، رغم أي شيء، مفهوماً غريباً يستوجب الاطلاع الدراسي بهدف التعرف والتعريف، لا أكثر؛ ولما كان عدد من الكتاب البارزين ينضوون تحت هذا اللون من الكتابة المتأثرة بمصادر شعبية، فقد

حرص مويان على تأكيد انتمائه لكتلة إبداعية يعرف، تماماً وبوعي شديد، موقعه ضمن حدودها.

في عالم مويان الروائي، الخلفية والحدث وفصول الكتابة وطبائع الشخصيات والتعيين الوصفي للبيئة، كل ذلك يتحول إلى سيرورة استجابة عفوية لأحاسيس ذاتية. الفرق بينه وبين باقي الكتاب يتمثل في عدم وقوفه طويلاً أمام جذوره الثقافية القديمة يتأملها بلا نهاية، حرصاً على اكتشاف ونشر وتعميم طاقة الحياة المستمدة من الجدود الأقدمين، لذلك فهو يجعل من تاريخ حياة الذين مضوا منذ زمان بعيد، لحظة بينية تنقضي سريعاً في حاضر من يتناولهم السرد؛ مما يخلق توتراً حاداً بين الشخصية في القصة والراوي في الحكاية، ومن ثم فالوعي يمثل جسر انتقال، عبر الرؤية السحرية، بين الموتى والأحياء، بين الأولاد المعاقين والأبطال الراحلين؛ فيتخلّق عالم رابط بين نقيضين.. ومثلاً، ففي رواية "الذرة الرفيعة الحمراء" لا يسعى الكاتب إلى حكاية وقائع الحرب التاريخية، بل يحكي آماله وسط الفراغات البينية التي تخلّفها حوارات الفلاحين.

قيل إن لقب "مويان" يعني الزجر بالصمت، امتثالاً لفضيلة استحسان السكوت في "زمن المتاعب الجاهزة لمن يتكلمون"، وأظن أن الزجر يرجع إلى تلك الفكرة القديمة عن صناع القصة القصيرة، بأنهم ثرثارون بما لا يفيد، فالكتابة أوقع، والرواية أبقى؛ ولئن كان لقبه بهذا المعنى يفيد احتفاءه بكتابة الرواية، فإن أحداً لم يقل لنا ماذا يعني اسمه الأصلي.. "كوان مو يا"!

ذاك عن الكاتب والأجيال والزمان، ولمحة إلى الأدب الصيني الحديث، فماذا عن الترجمة؟

بأمانة أقول إننا، دارسي الثقافة واللغة الصينية من الباحثين العرب، مقصرون في ترجمة الأدب الصيني الحديث، ولن ألتمس غفراناً من ثنايا التعلّات. لكنْ ألمح بجدية إلى أن الثقافة الصينية وآدابها، بقديمها الباقي وجديدها الطامح، أضخم وأصعب من أن يضطلع بترجمة آثارها (قل الأدبية فقط) عدد لا يتجاوز بضعة الدارسين القريبين من فهم اللغة والخصائص الثقافية، حتى لقد أشرت -وأعود للتأكيد- على أهمية الاعتداد بالترجمات التي تتم عبر لغات وسيطة، بل تشجيعها ودعمها كلما أمكن، وإليك مثلاً، وبصدد ما نحن فيه، تلك الإحصائية التي تشير إلى أن مجموع ما صدر في الإنتاج الروائي الصيني المعاصر، منذ نهاية الثورة الثقافية حتى أوائل الفترة الجديدة، أي في المدة من 1976 إلى 1985 بلغ نحو ألف رواية، مقابل ما نشر طوال زمن الثورة الثقافية، ومجموعُه نحو ثلاثمئة رواية، في حين كان العدد منذ تأسيس الجمهورية حتى عام 1959 لا يزيد كثيراً عن اثنتين وثلاثين رواية. أتظن أن ستة أو سبعة مترجمين، على الأكثر، ممن يعرفون لغة الأصل بطول العالم العربي وعرضه، يقدرون على الوفاء بترجمة أهم خلاصة من هذا الرصيد، مما قد لا يقل عن ثمانين رواية بالتقريب؟ هذا في حين أن عملاً ابداعياً واحداً قد يستغرق سنوات من المترجم الواحد.

أعي ما أقول جيداً، بالرغم مما هو معهود (ومفهوم) فيما يعتور النقل

عن لغات وسيطة؛ وهذا واحد من أشهر مترجمي مويان في الإنكليزية هوارد غولدبلات: "Howard Goldblat" وهو، أيضاً، أحد خبراء الدراسات الصينية المرموقين، يجيد الصينية كأهلها بحكم أنه قضى سنوات من الخدمة العسكرية في تايوان، بالإضافة إلى دراسته الجامعية المتخصصة، بل معرفته الشخصية بالكاتب مويان وصداقته الطويلة له، ومع ذلك فهو عندما يترجم رائعته "الذرة الرفيعة الحمراء" إلى الإنكليزية، يسمح لنفسه -متذرعاً بمفاهيم متداولة حديثاً في نظريات الترجمة المعاصرة- بأن يلحق بالنص المصدر تغييرات تلائم سياسات نشر ومزاج قارئ وشروط مقروئية قائمة في ثقافة المتلقي الأمريكي، دون الاعتداد كثيراً بما قد يلحق الأصل من تشوهات (كذا) حتى إنه حذف كثيراً مما كان يرد من ذكر لألفاظ وتسميات تتعلق بالحزب الشيوعي الصيني، متعللاً بضيق صدر القارئ الأمريكي من ذكر "تلك الأشياء"!!.. ويلجأ في مثال آخر إلى تعديل سن إحدى الفتيات، من الشخصيات الرئيسية في الرواية، إلى خمسة عشر عاماً بدلاً من ثلاثة عشر؛ بزعم أنه قد حسب عمرها بالنسبة إلى عمر ابنتها، طبقاً لما ورد في النص الأصلي، فوجد أنه من الأوفق تعديل السن تصحيحاً لسقطة حسابية وقع فيها الكاتب الصيني، تجعل الأم حاملاً في سن أصغر كثيراً من المعقول (!!). لستُ بالأساس أو بالتخصص دارساً للأدب الصيني (أو أي أدب آخر، معذرة)، ولست إلا باحثاً لغوياً، أحاول التخصص في مجال التراث الصيني القديم، و لم يكن لي أن أخوض بقلمي في مجال لا أملك فهم قواعده ومنهاجه وخصائص موضوعاته؛ فأعتذر لقارئي في ترجمات التراث الصيني، وأرجو أن يتفضل متسامحاً كريماً

بتقدير ظرف لم يكن فيه مفر من ضرورة التعريف بكاتب، كان إلى وقت قريب غير معروف، حتى لمعظم قرائه الصينيين، على أن أعود، لاحقاً، إلى مواصلة ترجمة المصادر التراثية الأساسية في الحضارة الصينية.

هذا، و لم تكن ترجمة قصة "الحلم والأوباش" لـ مويان بالأمر اليسير؛ فكتاباته محتشدة بعامية فجة وأمثلة سائرة وبلاغات فولكلورية يجد قارئ النص الأصلي نفسه صعوبة في فهمها. و لم يكن المعجم اللغوي ليسعف في شيء؛ لأن اللهجات المحلية الصينية متنوعة للغاية، ومن ثم تعقدت مداخل ترجمته. ثم إن مويان ذاته صرّح في لقاءات ومناسبات كثيرة قائلاً إنه يهتم بكيفية الكتابة أكثر من موضوعاتها، وبالتالي فالصياغة هي مربط الفرس -كما قد يقال- ولن يستقيم أبداً أن أترجم النص، في مثل هذا اللون من الكتابة إلى الفصحى المضبوطة (بافتراض أني أستطيع).. فهذا هو المؤلف يؤكد موقفه من تعيين اللغة قائلاً: "إن لغة الناس التي لم تتخللها مصفاة المماحكة هي اللغة التي تستحق الاهتمام من جانب الساحة الأدبية؛ ذلك أن استبعاد تلك الأساليب الحيوية المتجددة، يشبه قطع تيار متدفق نحو بحيرة، فالإنصات إلى لغة العامة والبسطاء هو الذي يحفظ على أساليب الكتابة حيويتها وتدفقها." هكذا إذن، أراد هو العامية وابتغيت الفصحى العربية، وقد قيل إن الترجمة في الأصل خيانة، و لم أكن أريد أن أشتط بها إلى حد اقتراف الجريمة، لكن..

في الفصحى ما قد يصلح أيضاً لملاءمة مذاق التعبير بالعامية المخففة، باستدعاء عبارتها كما عهدناها في كتابات مؤرخي مصر المملوكية

والعثمانية سواء عند ابن إياس وابن تغري بردي، أو حتى عند ابن زنبل الرماح وأبي السرور البكري أو ابن يوسف القرماني والأمير الشهابي، وشيخ العربية الدارجة "الجبرتي" وكان لديهم جميعاً المدد الوافر، على أني لم أجد معالجة أخرى للنص المترجم يمكن أن تكافئ صياغة النص المصدر أفضل مما تصورته وأخذت به، فقط، في بعض الأحوال التي استدعت ذلك، وعلى الوجه الذي كنت أراه معبراً عن اتجاه الكاتب ومبيناً لخصائص نزعته الروائية، لكن دون أن أبدّل شيئاً من المحتوى، فلا اسماً حذفت ولا حساباً عدّلت، بل حرصت أحياناً، وعلى نحو قد يتاخم حد الهزل، أن أنقل معنى ألقاب مُعطَاة لشخصيات بعينها، أراد الكاتب لها دلالة مقصودة في ظلال الكلمات.

محسن فرجاني

القاهرة في نوفمبر 2012

عن المؤلف

مويـــان

ولد مويان في عائلة ريفية بقرية كاومي بمقاطعة شاندونغ شمال شرق الصين، وذلك في السابع عشر من فبراير عام 1955، لم يكمل تعليمه أثناء الثورة الثقافية الصينية (66 – 1976) ليلتحق بالعمل في مصنع للزيوت، ثم التحق وهو في سن العشرين بالجيش، حيث بدأ أول محاولات الكتابة الروائية أثناء الخدمة العسكرية، لكن أول محاولاته الإبداعية الجادة بدأت في 1981، وقد أكمل دراساته المتخصصة في القسم الأدبي بأكاديمية الثقافة والفنون التابعة للجيش، وحصل في عام 1991 على درجة الماجستير في الأدب من جامعة بكين.

قائمة بأهم أعماله:

1 – "الذرة الرفيعة الحمراء" (نشرت لأول مرة في 1987 بالصينية، ثم صدرت ترجمتها الإنكليزية الأولى في عام 1993)

2 – "أناشيد الثوم" (نشرت لأول مرة بالصينية في 1988 ثم صدرت ترجمتها الانكليزية الأولى في 1995.

3 – "الانفجار وقصص أخرى" (مجموعة قصص قصيرة).

4 – "جمهوريـة الخمـر" (روايـة نشـرت بالصينيـة في 1992 ثـم بالإنكليزية في 2000)

5 – "صدور ممتلئة وأرداف كبيرة" (نشرت بالصينية في 1996 ثم بالإنكليزية في 2005)

6 – "مكابدة الحياة والموت"(صدرت ترجمتها الإنكليزية في 2008)

أهم الجوائز الأدبية الحاصل عليها:

1 – رشح لجائزة "نيو شتادت" في الأدب، وذلك في 1998.

2 – جائزة "كيرياما" الأدبية عن رواية "صدور ممتلئة وأرداف واسعة" في 2005.

3 – جائزة "فوكوكا" للثقافة الآسيوية في 2006.

4 – جائزة نيومان للأدب الصيني عن رواية "مكابدة الحياة والموت" في عام 2009.

5 – جائزة ماوتون الأدبية الصينية عن رواية "الضفدع" في 2011.

6 – جائزة نوبل للأدب في 2012.

عن المترجم:

محسن فرجاني

- صدرت له عن "المركز القومي للترجمة" عدة ترجمات للتراث الفلسفي الصيني.
- ترجم عدداً من الدراسات في مجلتَي "الألسن للترجمة" و"أواصر".
- مدرس اللغة الصينية بالألسن، جامعة عين شمس.
- عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة.

أحدث إصدارات دار العين للنشر 2013

	اسم الكتاب	المؤلف / المترجم
1	الدنيا أجملُ من الجَنة	خالد البري
2	كتاب الثورات العربية	فخري صالح
3	ميادين الغضب	حسين حمودة
4	الأسد المغاغي . . والقطة الفاقوسية!	تامر شيخون
5	الأمن من المنصة إلى الميدان	حمدي البطران
6	ماندورلا	أحمد الفخزانى
7	قلبى مزيكا بمفاتيح	مى محمود
8	الدولة البوليسية فى مصر	أميـر سـالـم
9	ابن الشمس	رانيا مامون
10	جوزى والشات والبنات	د. هبة يس
11	المسرح والتنمية الثقافية	مجموعة مؤلفين
12	قبـر راحيل	محمد عزب
13	أرحام سماوية	محمد عزب
14	قضايا راهنة في المسرح الإماراتي	حسام ميرو

15	حول الناصرية والشيوعية المصرية	سمير أمين
16	قانون القيمة المعولمة	سمير أمين
17	أصناف أهل الفكر	د. عمار علي حسن
18	الجمال في زمن القبح	د. ملاك نصر
19	في الصحراء ورد	حصة لوتاه
20	فضة الدهشة	د. ياسر ثابت
21	معجزة للعلاقات	ترجمة: أيمن محمود
22	دون أثرٍ لقُبلة	سارة علام
23	أزرق . . . حد البياض	ميلود خيزار
24	هموم مواطن عربي	د. محمد عبد الله المطوع
25	تلاوة الظل	سيد محمود
26	بسكويت وعسل أسود	حاتم حافظ
27	قصة اغتيال بويصير والكخيا في مصر	محمد عبد الهادي علام
28	سلالم النهار	فوزية السالم
29	أحمد عبد الغفار ودوره في السياسة المصرية	عائشة عبد الغفار
30	كيف نقرأ العالم العربي اليوم؟	ترجمة: شريف يونس
31	في الأدب والنقد	أ.د/ غراء مهنا

32	زجاج معشق	رءوف مسعد
33	الحب المحرم	ترجمة: بسمة عبد العزيز
34	الحياة المزدهرة المرشد لرؤية جديدة	نهى خليل
35	معصية فهد العسكر	عقيل يوسف عيدان
36	النخبة والثورة	نبيل عبد الفتاح
37	حطب معدة رأسي	مصطفى ذكري
38	أعطيك الشمس كل شيء	ترجمة: رضى القاعوري
39	يارب . . أعطنا كتابا لنقرأ	مهاب نصر
40	بنات الأصول (قصص قصيرة)	منى طه
41	المستقبل الأقصى	جيمس كانتون
42	أمواج العمر	د. فوزية العشماوي
43	رسالة الفرطوسي	عبد الإله عبد القادر
44	دولارات بطعم الشيكولاته	عبد الله يسرى
45	الحياة الثانية لقسطنطين كفافيس	طارق إمام
46	جمالي في الصور	ميسون صقر
47	قصة حياة الأميرة الباشتونية معصومة	غادة غنطوس
48	عالم المندل	أحمد عبد اللطيف
49	سنديان، بلوط وكافور	رانيا جوزيف
50	الكرمل الجديد٣-٤	حسن خضر
51	وجع الرمال	عبد العزيز الراشدي
52	ملحمة السراسوة(شياطين . . . ملائكة)	احمد صبري أبو الفتوح

الحلم و الأوباش

في عالم مويان الروائي، فإن الخلفية والحدث وفصول الكتابة وطبائع الشخصيات والتعيين الوصفي للبيئة، كل ذلك يتحول إلى سيرورة استجابة عفوية لأحاسيس ذاتية. الفرق بينه وبين باقي الكتاب يتمثل في عدم وقوفه طويلا أمام جذوره الثقافية القديمة يتأملها بلا نهاية، حرصًا على اكتشاف ونشر وتعميم طاقة الحياة المستمدة من الجدود الأقدمين، لذلك فهو يجعل من تاريخ حياة الذين مضوا منذ زمان بعيد، لحظة بينية تنقضي سريعًا في حاضر من يتناولهم السرد؛ مما يخلق توترًا حادًا بين الشخصية في القصة والراوي في الحكاية، ومن ثم فالوعي يمثل جسر انتقال، عبر الرؤية السحرية، بين الموتى والأحياء، بين الأولاد المعاقين والأبطال الراحلين؛ فيتخلّق عالم رابط بين نقيضين.

غلاف: محمد عبدالعزيز

دار العين للنشر
Elain Publishing House

9 789774 902086